غراتسيا ديليدّا



إلهُ الأحياء



روايــة

ترجمة: معاوية عبد المجيد

غراتسيا ديليدّا

إلهُ الأحياء

رواية

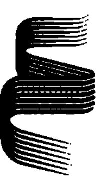
ترجمة: معاوية عبد المجيد

مراجعة د. عزالدين عناية

PQ4811 .E6 D56125 2021
Deledda, Grazia, 1871- 1936
إلهُ الأحياء : رواية / تأليف غراتسيا ديليدّا ؛ ترجمة معاوية عبدالمجيد ؛ مراجعة عزالدين عناية.
ـ ط. 1. ـ أبوظبي : دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2021.
163 ص. ؛ 21 سم.
ترجمة كتاب: Il Dio dei Viventi
تدمك: 978–9948–33–127–8
1ـ القصص الإيطالية– مترجمات إلى العربية– القرن 20. 2– القصص العربية– مترجمات من الإيطالية– القرن 20. أ– عبدالمجيد، معاوية. ب– عناية، عزالدين. ج– العنوان.

تتضمّن هذه الرواية ترجمة الأصل الإيطاليّ:
Il Dio dei Viventi, Grazia Deledda, Fratelli Treves Editori, 1922 Milano (Italy)

صدر بموافقة مكتب تنظيم الإعلام– وزارة الثقافة والشباب– رقم الطلب MC-03-01-5507573 .
طبع في المتحدة للطباعة والنشر– أبوظبي– 80022220






إلهُ الأحياء

«وليس هو إله أموات، بل إلهُ أحياء»

(إنجيل مرقس 12: 27)

جرت الأمور على النحو الذي كانت عائلةُ باركاي ترجوه. إذ إنّ بازيليو، الأخ الأكبر، الوالد لابنٍ غير شرعيّ رغم كونه أعزبَ، توفّي من دون أن يترك وصيّة. وهكذا نُقِلَتْ أملاكه إلى زيبيديو الأخ الأصغر، وأُعيدَ ترتيبُ ميراث باركاي مثلما كان عليه في زمن الجدّ الأكبر، الذي أَجبر ابنيه كليهما على دخول سلك الرهبنة، وأجبر ابنته على عدم الزواج، وذلك للحيلولة من دون تشتُّت ثروته.

وكان هذا التقليد واعداً بالاستمرار، لأنّ زيبيديو لم يكن لديه سوى ولدٍ واحد، وقال الناس إنّه ظلَّ وحيداً لغايةٍ في نفس أبويه اللّذيْن عقدا الآمال على أن يموت عمُّه أعزبَ.

جرت الأمور مثل المتوقّع إذن، ومَن يعرفْ عادة آل باركاي تلك، لم يعجبْ من دناءة بازيليو، إذ لم يترك لابنه أيَّ شيء، كما إنَّه مات على حين غرّة جرّاء مرضٍ في القلب لطالما تجاهله.

وعلى الرغم من التركة، فإنّ رحيله أثَّرَ في شقيقه أثراً عميقاً، إذ كانا متحابَّين على الدوام منذ الصغر، وكانا يتعاونان في الأعمال وأحوال الحياة. وكانا يسكنان في دارٍ واحدةٍ موزعةٍ إلى قسمين متساويين بفناءٍ مشترك. ثمّة قريبةٌ فقيرةٌ كانت تقوم على خدمة بازيليو، وكانت زوجة زيبيديو تساعدها نظراً إلى تقدُّمها في السنّ.

خرج زيبيديو من البيت مساءً بعد الجنّاز، متدثّراً بمعطفه، وذهب لدى عشيقة أخيه.

كان همُّه الشاغل هو أن يساعدها وابنَها بطريقةٍ ما، هذا ما أملاه عليه ضميره بشدّة.

وكانت المرأة تسكن على مقربة، في بيتٍ صغيرٍ من أملاك المتوفّى، لا بل إنّ زيبيديو يذكر أنّ العلاقة الآثمة قد نشأت تحديداً بسبب أنّها وزوجَها الحدّاد كانا قد استأجرا البيت منذ أعوامٍ طويلة، وذات يوم قرّر الرجل الذهاب إلى أمريكا بحثاً عن الثروة، فهوّنتِ الزوجةُ غيابَه بمراودة صاحب البيت.

علم الحدّاد بالأمر من رسائل مجهولة المصدر، فعاد عازماً على تهشيم رأس كلٍّ من العشيقين بمطرقته، لكنّه أثناء الرحلة أصيب بشللٍ في الساقين، نسبتْه أقاويلُ الناس إلى شعوذةٍ من تدبير الزوجة.

والحال أنّه استقرّ بالبلدة التي رسا فيها، حيث استثمر النقود التي جاء بها من أمريكا، وافتتح متجراً للخردة، عاد عليه بأموالٍ طائلة.

وكان بين الفينة والأخرى يكتب رسائل عدوانيّة لزوجته ويتوعّدها بالقتل، ثمّ لا يُقدِمُ على شيء أبداً.

*

كان زيبيديو يفكّر في كلّ تلك الأمور، وهو يمشي بمحاذاة الجدران ليتحاشى المارّين القلّة. كانت ليلةً صافية، يضيئها قمرٌ مفعمٌ بالحيويّة: فعندما كان زيبيديو يذرع بعض المساحات المقفرة، كان يرى ظلَّه يتشكّل على الأرض واضحَ الأطراف مثل طيفٍ مرسومٍ باللون الأسود، طيفٍ شيطانيٍّ بذلك المظهر المزوّد بقلنسوة المعطف القصيرِ والضيّق عند الخصر، والساقين الطويلتين المُطبقَتين بالجوارب الصوفيّة.

حذاؤه ثقيل، ومع ذلك كان يسير بخفّة، في منتهى رشاقة جسمه المكتنز

بالعضلات والأعصاب. كان يشعر أنّه قادرٌ على الدفاع عن نفسه، إذا هاجمه الأعداء، قادرٌ على الإمساك بهم وطرحهم أرضاً مهما كان عددهم، باستخدام يديه فقط. غير أنّه ليس له أعداء، ولا أحد سيفكّر في الاعتداء عليه في تلك الليلة المعتدلة من شهر أبريل.

وعلى الرغم من هذا، كان زيبيديو يقطّب حاجبيه ويشدّ قبضتيه فطريّاً كما لو أنّه عرضة لخطرٍ محدق. كان يفكّر في وفاة أخيه: هكذا، يمضي المرء في سبيله مطمئنّاً وواثقاً بنفسه وبالآخرين، فإذا بشبحٍ يتربّص به، يوجّه له ضربةً فيلقى مصرعه.

كان وجهه مكفهرّاً وداكناً ما بين سواد لحيته وشعره، حتّى إنّ المرأة التي أقبلت لتفتح له الباب أحسّت بالجزع، أو تظاهرت بذلك على الأقلّ.

وعلى الرغم من ارتيابها، أدخلته فوراً بلهفةٍ صامتة، ثمّ دعته إلى الجلوس بصوتٍ مرتجف.

جلس الرجل، بهيئةٍ صارمة، ويداه الغليظتان والسوداوان على ركبتيه.

كانت النار ما تزال تتأجّج في الموقد، وتبثّ في محيطها شعوراً معيّناً بالرخاء، داخل ذلك المطبخ النظيف، حيث كلُّ غرضٍ في مكانه، حتّى الطاولةُ النظيفةُ بدت جديدةً. هناك كرسيٌّ خفيض، بجانب النار، ينتظر زائراً لن يأتي أبداً. وبما أنّ زيبيديو جلس بعيداً عن المدفأة، كما لو أنّه يخشاها، أو أنّه مغتاظٌ من بريق اللهب وأواره، اتّجهت عينا المرأة السوداوان النجلاوان إلى ذلك الكرسيّ الخالي، وسرعان ما تلألأ الدمعُ فيهما. لكنّ وجهها لم يرتخِ، بل ظلّ رقيقاً وحادّاً، متّسماً بما ذكّرَ زيبيديو بوجه النمس.

كان ينظر إليها في صمت. لن تخدعيني بدموعكِ، قال في نفسه وهو يلاحظ أنّها ترتدي السواد كلّيّاً كأنّها أرملة، بجبّةٍ تُبرِزُ حنايا صدرها الناهد.

- أين الولد؟ - سألها بغتةً.
- في سريره، ليس على ما يرام.
- ما به؟ - ألحَّ بلهفةٍ مفرطة. - إن كان مريضاً فعليكِ أن تعتني به. لتنادي الطبيب. الطبيب مرغمٌ على المجيء، ذاك الرجل الشره، ألا لَيتهم يتمكّنون من قتله خلال ثمانية أيّام.

كان صوته مجلجلاً، مع أنّه يتكلّم بأسنانٍ مشدودة ويهجِّئ الكلمات، ويُفسِح سكتاتٍ عميقة بين الجملة والأخرى، كأنّه سمع جرس كنيسة فأراد أن يكون أوّلَ المنصتين.

كان صلفاً حتّى في احتقاره الطبيب، لذا افترَّت ابتسامةٌ لئيمة وعابرة من المرأة.

- لا داعي للطبيب، فليُصْلَ ناراً -قالت بنبرةٍ ملؤها بغضٌ هي أيضاً- لا تستهويني زياراته، وأستغني عنه دوماً. أداوي الولدَ بنفسي، حين تقتضي الضرورة، فمَن منّا لا يعرف كيف يداوي ولداً؟ بل أداوي حتّى الكبار، إذا اقتضى الأمر. لو...

«لو أنّ بازيليو عهد بنفسه إليّ، لو أنّه كان هنا خلال نزعه الأخير لربّما استطعتُ إنقاذه» أرادت أن تقول، لكنّها امتنعت. كان يراودها بعض التحفّظ في لفظ ذلك الاسم أمام زيبيديو الذي بدا أنّه يتجنَّب ذكره من جهته أيضاً.

- هل الولد يدرس؟ رأيتُه ذات يوم عائداً من المدرسة ويواصل القراءة في الطريق. عيناه السوداوان تتحدّثان وتتبسّمان بمفردهما.
- الولد يدرس. - أكّدت بصوتٍ خفيضٍ وأصمّ، وتنهّدت بعمق.
- مسكينٌ سالڤاتوري! يقول لي دوماً: «أمّاه، عندما كنتُ في المهد لطالما أنشدتِ لي أغنيةً تقول: اكبرْ وصرْ طالباً يا جوهرتي، عسى

أن تتّسع شهرتك من بَلاط روما إلى بَلاط إسبانيا. وها قد عقدتُ العزم على الدراسة لأصبح طبيباً».

كانت تنثني وتتأوّد، كما لو أنّها لا تزال تهدهد طفلها، ثمّ استوت رابطةَ الجأش لتستمع إلى كلمات زيبيديو.

- خلافاً لابني بيليا الذي يستخفّ بالدراسة ويُعرض عنها. فحين نجح في الصفّ الثالث قال هذا يكفي الآن، فحتّى لو أرسلتموني إلى المدرسة سأتّجه إلى الأرض لأفلحها.

- ابنك بيليا محقّ، فما الذي يفعله بالدراسة وهو الذي لديه أملاكٌ كثيرة ينبغي أن يحرص عليها؟

تبادرت إلى ذهن الرجل الغايةُ من مجيئه، فقطَّب حاجبيه وأغمض عينيه قليلاً كأنّه يريد النظر إلى دخيلة نفسه والإصغاء إلى صوت ضميره، واستجمع قواه ليتمكّن من لفظ اسم أخيه.

- ليا - قال بحزن - أنتِ تعلمين أنّ بازيليو لم يترك أيّ وصيّةٍ مكتوبة. بحثنا في كلّ مكان بلا جدوى. لم نجد شيئاً في جعبته، ولم نعثر على شيء في البيت. ألم يسلِّمكِ ورقةً ما من قبل؟

- لم يسلِّمني شيئاً يا زيبيديو. لكنّه لطالما أخبرني، حتّى عشيّة وفاته، أنّه كان سيتدبّر أمري وأمر الولد كما لو كنّا مرتبطين فيه شرعيّاً.

- ليا -استأنف بعد لحظة صمت- بلغني أنّكِ اليومَ ما إن علمتِ بأنّه لم يترك وصيّةً ألقيتِ بنفسكِ على الأرض وشددتِ شعركِ وصرختِ تسألين الله إحقاقَ الحقّ، صرختِ حتّى احتشد حول بيتكِ عددٌ كبير، وأراد كثيرون أن يجمعوا التبرّعات لابنكِ سالفاتوري. يا لهم من حمقى ومتسوِّلين ودِمام -صاح مغتاظاً- ماذا يظنّون؟ أنّ آل باركاي بلا رحمةٍ أو شرف؟

كانت المرأة تصغي باهتمام، وازدادت عيناها بريقاً ووجهها حِدّةً، وبدا أنّها تحدِّق في الظلام وهي تركِّز بصرها على الرجل كما لو كان فريسة.

- لقد بالغ مَن قصَّ عليك كلَّ هذا يا زيبيديو. هناك دوماً مَن يستمتع بالتحريض وإثارة الفتن. كنتُ أبكي، هذا صحيح، وإنّ لي ثلاثةَ أيّام وأنا أبكي. لكنّي كنتُ أبكي عليه، لا على أملاكه. لن يعود إلى هنا أبداً، حريٌّ بهذا الهاجس وحدَهُ أن يؤلِّب مواجعي، أمّا ما تبقّى فالله موجود. سأكتفي بنفسي مع حرصي على تربية ولدي وجعله رجلاً. لن أجد حرجاً في تحطيم الصخور إن اضطررتُ، لكنّي لن أحرم فلذة كبدي من شيء. أمّا ما تبقّى فالله موجود. -ردّدت، وكان في كلماتها أمرٌ خفيّ، وغامض.

- ما الذي تقصدينه بهذا الكلام؟

- أقصد أنّ الله يرى كلَّ شيء. إن كان بازيليو فعل ذلك عمداً، فهذا يعني أنّ الله أراد أن يعاقبني من خلاله. أنتِ ارتكبتِ إثماً، يقول لي، عليكِ أن تربّي ابنَ الخطيئة ما بين الأسى والعوز. الله عادل، لا بل إنّه العدل بذاته.

- لن ينقصكِ شيء. لديكِ بيت، ولن تنقصكِ المؤونة. وإن لم يستطع ابنكِ أن يصبح معلّماً أو طبيباً فسوف يصير فلّاحاً أو راعياً، ولكنْ لن ينقصكِ شيء.

- لو أنّ بازيليو ظلَّ على قيد الحياة لما كان ابني ليصير فلّاحاً أو راعياً -قالت بافتخار، وسرعان ما أدرك زيبيديو أنّها تسعى إلى أن يكمل الولد تعليمه، لكنّه كان سارحاً في أفكارٍ أخرى، كما إنَّه في أعماقه غَيورٌ من ذكاء الصغير سالفاتوري وحسن تطلّعاته: لماذا ينبغي لسالفاتوري أن يصبح طبيباً في حين سيبقى بيليا فلّاحاً؟

عجز عن الإجابة فوراً، مع أنّه شعر بنظرة ليا تخترقه لتلجَ روحه، وراوده انطباعٌ بأنّها تقرأ أفكاره وتتكهّن بكلّ شيء عنه، لكنّه ليس رجلاً ضعيفاً، وإذا ما أراد شيئاً أراده. استأنف كلامه:

- لا أعلم ما نيّة بازيليو بخصوص الولد، لم يحدّثني بهذا الأمر قطّ. كنّا متقاربين للغاية، تجمعنا أخوّةٌ وطيدة، لكنّه كان كتوماً فيما يتعلّق بشؤونه الخاصّة. إلّا أنّني أعرف شيئاً ما، وهو أنّه لم يكن يودّ الذين يهجرون البلدة. كان يقول: إن كان الله قد شاء أن نولد في هذا المكان فعلينا أن نعيش فيه، وكلّما تأصّلَ مقامُنا في بيتٍ أو حظيرة هنأ عيشُنُا واتّسعت سكينتُنا. بازيليو، كان رجلاً عاقلاً.

- كان رجلاً عاقلاً -أكّدت المرأة- لكنّه كان يقول لي: لا يجدر بنا أن نستعبد الآخرين ونقوّض إرادتهم. صحيحٌ أنّ الله وضعنا في مكانٍ ما، ولكنْ إذا أراد المرء أن يسير ويذهب بعيداً فهذه دلالةٌ على أنّها مشيئة الله. لقد رحل يسوع والحواريّون بعيداً، حتّى البحر وحتّى روما، وكانوا مَن كانوا.

بدا الرجل متأثّراً بتلك الملاحظة، لكنّه سارع إلى هزّ رأسه باستنكارٍ جليّ: هل تريد هذه المرأة أن تقارن ابنها بيسوع أو أحد الحواريّين؟

- كم عمر ابنكِ الآن؟ -سألها مباغتاً.

-ابني يتمّ عشرة أعوام الآن، فليباركه الربُّ وليمدَّ في عمره مئة عام.

- ألا ينوي أن يصبح راهباً؟

افترّت ضحكةٌ طفيفة وصادقة من المرأة على الرغم من مصابها.

- ابني متديّن، لكنّ عينيه في الحقيقة لا تقولان إنّه يفكّر في أن يصبح راهباً.

- مع أنّه أفضل ما يمكن للرجل أن يكون عليه. - قال مقتنعاً -ليتني

كنتُ راهباً. كنتُ سأعيش هنيئاً في هذه الحياة، وكنتُ سأنجّي روحي علاوةً على ذلك.

- ومَن يمنعك مِن أن تعيش هنيئاً وأن تنجّي روحك؟ كيف لا أقنط من نجاة روحي، وأنا الآثمة ومسبّبة العار، وتخشى أنت على روحك من الهلاك؟ لم ترتكب أيّ جريمة، ولم تتعدَّ على ما لغيرك.

كانت تحدِّق إليه، لكنّها بدت شديدة الفضول بالأحرى لمعرفة ما الذي يمكن لهذا الرجل أن يأثم فيه.

قال بنبرةٍ تتراوح بين الحدّة والتواضع:

- كلّنا معرّضون للخطأ، وإن لم يقع محظورٌ فيما مضى، فقد يقع في الآتي. والذنوب ليست كلّها محصورةً في السرقة.

- هذا صحيح، خذ أخاك نفسَه مثلاً: كان رجلاً حكيماً، وأذنَبَ رغم ذلك. سيغفر له الله بناءً على حسن نيّته، ففي النهاية ثمّة عائقٌ منعه من إيفاء حسابه في الدنيا. غالباً ما نذنب في حقّ إرادتنا. هو نفسه كان يقول ذلك. ناهيك عن أنّه كان يعيش معي كما لو كنتُ زوجته الشرعيّة، وسيغفر الله له، أعي ذلك في قرارة روحي.

وفجأةً حنت رأسها بعمقٍ كأنّه يتمزّق على وقْع الألم والذكريات، وبكت بشدّة.

كانت كلُّ كلمةٍ تلفظها كالسهام تصيب زيبيديو، واستفزّه بكاؤها بدلاً من أن يؤثِّر فيه. كان يظنّ أنّه يفهم تلميحاتها التي تصبُّ في المبتغى ذاته، وهو أنّ أهل بازيليو سيحرمونها من الميراث على الرغم من تدابير المتوفّى، لكنّه كان رجلاً ذا ضمير، وأراد أن يوضِّح الأمور.

- أنا رجلٌ ذو ضمير يا ليا -قال بنبرةٍ هادئة- وأكرّر على مسمعكِ بأنّي لن أحمِّلَ بازيليو ذنوباً وهو في حضرة الربّ. لقد جئتُ إلى هنا من

أجل هذا. أصغي إليّ: لا طائل من الإيغال في الثرثرة. حالما مرّت فجيعتنا بوفاة بازيليو، فكّرنا جميعاً بكِ وبابنكِ وقد أنيرت أفئدتنا بأحسن النيّات. وكانت زوجتي تحديداً قلقةً بهذا الشأن، إلى أن جاء بعض الناس وأخبرونا بما فعلتِ، بصياحكِ، واتّهاماتكِ، ما جعل كلَّ الأقارب يضمرون الضغينة. وقالوا فلننسَ أمرها، أيُّ عدوٍّ هي! هل تعلمين يا ليا؟ لقد جئتُ إلى هنا هذا المساء خلسةً عن عائلتي ومن غير درايتهم. وإنّي هنا لأقول لكِ: ليا، أدّي واجبكِ، وابقي في منزلكِ وتابعي شؤونكِ، ولا تثرثري مع جيرانكِ أو غيرهم ولا تلقي بالاً لأحاديثهم ولا تعيريهم اهتماماً. أنا سأفكّر وسأتدبّر أمركِ وأمر ابنكِ، وسترين كم ستكونين سعيدة. وإلّا ماذا تريدين؟ لا يمكنكِ مناصبة العداء، فمن الأفضل أن تستجيبي لإرادتي الطيّبة إذن.

كانت المرأة تبكي.

- لا يهمّني شيء -قالت بصوتٍ نابعٍ من جوفها- لا خير في الدنيا يعوِّض الخير الفقيد عندي.

*

قام زيبيديو منزعجاً بعض الشيء. كان في مجيئه إليها يتوقّع منها صيحات بذيئةً ولعناتٍ ناقمة، وحين رآها مستكينةً ومذعنةً لمصيرها شَعر بالاختلال، إذ كان يفضِّلها عدوانيّةً ومفترية. لكنّه كان يعلم جيّداً، على الرغم من قلّة معرفته بها، أنّها امرأة مغوية وزائفة، تعتمد المراوغة أسلوباً، وهذا ما جعلها تخدع بازيليو المسكين بالضبط.

وقف أمامها، وما زال يسند كفّه على الطاولة وينظر إليها من الأعلى في

انتظار أن تنهي نحيبها.

- تشجّعي -قال أخيراً، كما لو أنّه يعزّيها- لقد وُلِدنا لكي نعاني. ألا ينبغي لي البكاء عليه أبد الدهر أنا أيضاً؟ لقد كان أخي، بمعزلٍ عن كلّ شيء. سيشفي الزمن جراحنا. وداعاً.

مضى من دون أن يصافحها. نهضتْ على حين غرّة ورأت أنّه ترك على الطاولة ورقةً نقديّة من فئة المئة ليرة. ودّت في الوهلة الأولى أن تمسكها وترميها خلفه، ثمّ ارتعشت وتجمّدت في الآن نفسه مثل حصانٍ جامح، وتبعت الرجل بخطوات طويلة حتّى الباب وودّعته بإذعان.

وما إن غدت بمفردها أخذت الورقة وطوتها بكلتا اليدين وهي تنظر إليها كما لو أنّها تتفحّص أصالتها، وسرعان ما نهضت ولوّحت بذراعيها باتّجاه الباب لتلعن الرجل وكلَّ سلالته.

*

أمّا زيبيديو، في الخارج، فقد شعر أنّها تلعنه فعلاً، وتملَّكه بعضُ الخوف أيضاً، إذ راوده أنّ سالفاتوري في النهاية هو ابن بازيليو، وإذا كان حقُّه القانونيُّ مستثنىً من الميراث، فله حقٌّ طبيعيٌّ فيها.

هكذا هي تدابير الله. لكنّ الحياة غالباً ما تكون محقّة مثل خالقها. الحياة لا تسمح لابنِ غير شرعيّ أن يحصل على تركة والده، والحال أنّ القوانين هي من صنع أناسٍ حكماء ربّما بل من المؤكّد أنّهم يستلهمون أحكامهم من الله.

وإذا كان القانون يقتضي ما يقتضيه فإنّ بعض القَصاص لا بدّ أن يثقل على ابن الحرام. وهذا ما قاله الربّ حقّاً، إنّه يجب على الأبناء أن يحملوا خطايا آبائهم.

- نحن نسير مسترشدين به. إن شاء هو أن أفعل هكذا فهي دلالةٌ أنّه يجب عليَّ أن أفعل هكذا.

لكنّه كان يخشى لعنة المرأة وشعوذتها. كان يعلم على سبيل المثال أنّها - وعلى الرغم من إبداء آلامها حينذاك - لم تكن على وفاقٍ كبيرٍ مع بازيليو في الآونة الأخيرة، بل كانت تتمنّى أن يصيبه مكروه، ولعلّها هي التي جرّته إلى حتفه.

فلتذهب إلى الشيطان هي أيضاً إذن. لوَّح بيده بإيماءةٍ لطرد الشؤم، غير أنّه كان ينظر إلى الأرض ويُخيَّل إليه أنّها تتشقّق بين الفينة والأخرى، ليتبدّى من بين الصدوع قاعٌ غامضٌ من ماءٍ ونار. فإذا هي مجرّد قطعٍ زجاجيّة صغيرة تلمع تحت ضوء القمر.

*

انتهت زيارات العزاء أخيراً، وهَمَّتِ النساء بإعادة ترتيب الدار.

وكانت الخادمة، الفتاة التي تشبه ليا وتفوقها بالفظاظة والشباب، قد أعادت إيقاد النار ووضع إبريق القهوة ليغلي، وهي على علم بأنّ هذا خيرُ سلوانٍ لها ولسيّداتها. وفكّرت بسرور أنّ سيّدها العجوز سيتمكّن أخيراً من الذهاب إلى الريف مثلما فعل سيّدها الصغير.

الرجال متسلّطون ومتطلّبون حين يمكثون في البيت. أراد السيّد العجوز منها أن تسكب له ماء الشرب أيضاً، وأن تغسل قدميه كما لو كانت أَمَة.

وفي تلك الأيّام تحديداً غدا أقسى ممّا مضى. يبدو أنّ الأسى من فقدان شقيقه يجعله فظّاً ولئيماً، عوضاً من أن تذكّره الفاجعة بأنّ الموت مكتوبٌ علينا جميعاً.

وها هو ما يزال جالساً في المكان الذي تلقّى فيه تعازي المعارف والأصدقاء منذ ثلاثة أيّام، ثابتاً وصارماً بمعطفه مثل شيطانٍ يتوب. صاح بالفتاة أن تذهب إلى إخراج الحصان من الإسطبل واقتياده إلى المنهل.

- لا تركبيه، دعيه ينهل ببطء.

- لقد سقيتُه هنا، من ماء البئر النظيف كالفضّة.

- أوه!

اكتفت بتلك الصيحة لتنتفض كأنّها تتلقّى جَلْدةَ سوط وتركض بعيداً.

والحال أنّ السيّد أراد التخلّص منها ومن فضولها بعض الوقت، ليتحدّث مع المرأتين قبل المضيّ إلى الريف، لعلّه يخفّف من وطأة الحِمل الذي أثقل على عاتقه وروحه.

- يا عمّة آنّيا -قال بنبرةٍ تتّشح بارتجاف- علينا أن نتحدّث في أمر. وأنتِ يا ماريّا كاتيرينا، لا تبقي واقفة، اجلسي.

انصاعت الزوجة مباشرةً، كانت امرأة قصيرةً وبدينةً، وخانعةً، بحيث كانت ستبقى جالسةً طوال حياتها من دون صنع شيء وسترتضي مصيرها هذا. جلست بجانبه واستعادت بفطرتها أسلوب الحزن والوقار الذي دأبت عليه خلال العزاء.

أمّا العمّة آنّيا العجوز فما زالت تغدو وتجيء متّكئةً بجسمها الفارع والهزيل والمحدودب على عكّازة لا تفارقها أبداً، وكانت أهداب عباءتها الطويلة السوداء تتمسّح بالأرض، كلّها من قماشٍ ثخين، ومن القماش منديلُها الذي يكتنف وجهَها الخزفيَّ الكبير ذا الشفة السردينيّة والعينين الكبيرتين الغامقتين والمحاطتين بهالةٍ سوداء.

كانت تغدو وتجيء، سمعتْ نداء زيبيديو وربّما أدركت سببه، لكنّها تظاهرت بالعكس، مشغولةً بملء الزيت في القناديل المصفوفة فوق

المدفأة، والمصباح الذي يُستَخدم في الليل للذهاب إلى الفِناء أو الإسطبل.

- عمّة آنّيا -ردّد زيبيديو متكلّفاً ليبدو لطيفاً- تعالي واجلسي هنا، من فضلكِ. أودّ أن أستشيرك في أمر.

وضعت إبريق الزيت، مسحت يديها ببطء شديد، سارحةً في خواطرها التي لا شيء يستحقّ أن يقطعها عنها.

وعندما طاب لها أخيراً، ذهبت لتجلس في عمق الغرفة هي أيضاً، هناك حيث يتّسع المكان بما يشبه حنية الكنيسة ويُحاط بنافذةٍ مغلقة آنذاك بسبب الحِداد، مثل بقيّة النوافذ.

- أتحدّث بخصوص تلك المرأة -قال زيبيديو- بخصوص ليا، عشيقة المرحوم بازيليو.

ردّت العجوز مستاءةً:

- إن كنتَ رجلاً قويَّ القلب ينبغي أن تسارع لإيجاد الوسيلة المثلى لإخراسها.

- كيف؟ -سألها محتدّاً- نوِّريني أنتِ بالوسيلة المثلى.

- أنت تعرف ما الذي فعلوه بماريّا ديليبيري، على الرغم من أنّها نبيلةٌ وثريّة. كانت سليطة اللسان وتحبّ الفضائح. حسناً، أنت تعرف ما الذي فعله بها خصومها. أنت تعرف.

كان يعرف ما الذي حلَّ بالسيّدة ماريّا ديليبيري. جَلَدها خصومها بالسوط على مؤخّرتها العارية حتّى أدموها، ورشّوا الملح على جروحها النازفة، بحيث إنّ المرأة ذات اللسان الطويل كادت تفقد حياتها.

- كان خصوم ماريّا ديليبيري على صوابٍ بما أنزلوه بها. ثمّ إنّ ذاك زمانٌ ولّى. ولا أجدني خليقاً بهذا.

- هناك القاضي أيضاً -اقترحت زوجته على حياء- إنّه يحاكم المشهِّرين.

- أنا -استأنفت العجوز بنبرة حاقدة- لطالما أخبرني حدسي بأنّ تلك الشيطانة ستجلب البلوى إلى دارنِا. لا بل قد جلبتها حقّاً، منذ ذلك اليوم اللعين الذي وقعت فيه عيناها الشرّيرتان على ولدنا بازيليو المسكين. التقت به، وجذبته إليها بالاستعانة بشعوذة الجحيم. وفي إحدى المرّات حرَّضته حتّى على ارتكاب جريمة. بوسعي أن أقولها لكما بكلّ صدق، لأنّ الفقيد المسكين قد صارحني في بعض اللحظات. وكان يقول لي: «عمّة آنّيا، ربّما سآكل خبز الملك» أيْ ربّما سيدخل السجن. لأنّ الأفعى كانت تنصحه بأن يقتل زوجها إذ أخفقت هي بشعوذتها. وكان زوجها على علم بالأمر، ولا يزال، يا له من شقيّ. هذا ما أثناه عن العودة إلى بلدته، خوفاً من أن يُقتَل. سأخبركما بشيءٍ آخر...

- مهلاً -قاطعها زيبيديو ممتعضاً من سيل كلامها الجارف- هذه محض ثرثرة، والواقع أنّ المرأة تشهِّر بنا، لعلّ أحداً مّا لا يصدِّق قصصها، لكنّ معظم الناس يصدِّقون. ينبغي إخراسها، هذا هو المهمّ.

- اذبحها، أعيد على مسامعك. وإلّا فإنّ زوجتك على حقّ، فلنقدِّم دعوى ضدّها.

- واه يا أَمَة الربّ! -تنهّد- الدواء أسوأ من الداء.

- لماذا؟

- لأنّنا إذا أقلقنا راحة أفعى نهشتنا بغضبٍ أكبر.

- فما الذي تفكّر فيه؟ قل أنت.

- برأيي أن نأخذها بالحسنى، أن نساعدها على أعباء الحياة.

- آهٍ يا زيبيديو! هل تريد أن تضع الأفعى في حضنك؟ جرِّب، جرِّب. جرِّب وسترى بعينك.

- ليس من أجلها في نهاية المطاف، بل من أجل الطفل. إنّه ابن المتوفّى المسكين، وعلينا أن نعينه.

- هذا صحيح. ولكنْ ألا يمكننا أن ننتزعه من تلك المرأة ونربِّيه بأنفسنا؟ كان بازيليو يحبّه كثيراً. - قالت الزوجة.

لم تجب العجوز، لكنّها ابتسمت على سبيل التعاطف، إذ كانت تكنّ احتراماً كبيراً لماريّا باركاي، وتعدّها بمنزلة سيّدةٍ لها، فلا تعارضها، إنّما تتعاطف معها على سذاجة مواقفها. وفي تلك الأثناء قال زيبيديو أيضاً:

- ليس الظرف مناسباً حتّى للحديث بالأمر، كما إنَّ التفكير فيه ليس مشرِّفاً. ناهيك بأنّي سمعتُ عن الفتى أنّه ذكيّ ومتعلّقٌ بأمّه.

- وستصنع منه أمّه عدوّاً لنا، كن واثقاً.

- لا أشكّ، إلّا إذا سعينا إلى منع حدوث ذلك.

- ما الذي تفكّر فيه إذن؟ تنازلْ لهما عن الميراث، هيّا. - قالت العجوز بتهكُّم غاضب.

- لو أنّ بازيليو أراد ذلك، لنفَّذتُ إرادته. - أكّد زيبيديو بحزنٍ عميم.

- لحسن الحظّ أنّ بازيليو سلَّمَ أمر تلك الأفعى لله. وإنّ الله لا يغفل، أليس هو الذي يتدبّر شأن كلّ أفاعي الأرض؟

- عمّة آنّيا! إنّ هذا الكلام لا يليق بكِ. فأنتِ راشدة ولطالما عرفتُكِ حكيمةً وتقيّة. قد يُضمِر جميعنا السمَّ في قلبه، لكنّ في باطن القلب ضميراً.

- صحيح. - وافقت زوجته.

حتّى العجوز بدت أنّها متأثّرة من كلماته.

- فقل أنت يا زيبيديو.

- لقد قلت. علينا أن نساعد المرأة وابنها. علينا ألّا نصغيَ لأقاويل

الناس، فالناس تستمتع في إثارة القلاقل. أغلقي الباب في وجه النسوة العاطلات، وليذهبن إلى الجحيم للثرثرة مع إبليس. اسمعي منّي، واغلقي الباب.

كانت العجوز تحدّق إليه ما بين الفضول والتهكّم. سألتْهُ في النهاية:

- هل ذهبتَ أنت أيضاً إلى وكر الأفعى؟

احمرّ وجهه، لكنّه بدا احمراراً ناجماً عن استياء، أو تظاهر بأنّه كذلك على الأقلّ.

- وماذا لو ذهبتُ؟ هل أنا رجلٌ يخاف من الأفاعي؟ لقد فتكتُ بآلافٍ منها، وإحداها بحدّ عكّازي.

- لذا أردِّد على مسمعك أنّك تحسن صنعاً إذا سحقتَ لسان تلك الأفعى، لا أقول أن تفتك بها.

- ربّاه، أليس هذا ما كنتُ أقوله؟ -صرخ- يجب على الرجل أن يتحدّث ثلاث ساعات مع النساء قبل أن يفهمنه. في المحصّلة، الحلّ كالآتي: ينبغي إخراس المرأة وذلك بأن نساعدها. فلنرسل أغراضاً إلى بيتها، بغية أن ترانا الناس أيضاً. وإلّا تدبّرتُ الأمر بنفسي، وسأفعل لأنّه ما يمليه عليّ ضميري، ولكنْ لا تصدّعي رأسي بالأقاويل.

كان صوته يرتفع تدريجيّاً وبدا أنّ الصياح يحلو له، ولم يكن يهمّه الصياح بعد تلك الأيّام المليئة بالقدْح والنميمة، بقدر ما همَّه إثبات إرادته.

حنت الزوجة رأسها ونظرت إلى يديها الغليظتين المتشابكتين في حضنها، كانت تعدّ إرادة زوجها إرادتها، على أنّه لم يؤسفها في تلك اللحظة أن تعارضَ العمّةُ آنّيا زيبيديو، لأنّها في الصميم كانت هي الأخرى تخشى من أفاعَيل ليا، وقد عانت على مدى طويل من التخوّف بأن يذهب ميراث بازيليو إلى ابن السِفاح ذاك بدلاً من أن يصبح من نصيب ابنها بيليا.

قالت العجوز حينذاك، من دون أن ترفع صوتها أو يتشتّت ذهنها:

- إن ظننتَ أنّك ستطيّب خاطرها فأنت واهمٌ يا زيبيديو. تلك أفعى لن تشعرك بالراحة أبداً، وكلّما أحسنتَ إليها آذتك. أكرّر عليك شكوكي بأنّ وفاة بازيليو كانت من تدبيرها، هو أيضاً كان يخشى ذلك.

- لماذا تقولين هذا يا عمّة آنّيا؟

- لأنّك أنتَ مَن قال: قد يُضمِر جميعنا السمَّ في قلبه، لكنّ في باطن القلب ضميراً. لعلّك ترى ألّا مصلحةً لتلك الأفعى في موت بازيليو المسكين، بل كانت ستخسر كلَّ شيء بفقدانه. وها أنا أجيبك: إنّها لم تكن تفكّر كذلك، إنّما كانت واثقة من قدرتها على وضع يديها على أملاك بازيليو، ومتيقّنة من أنّه ترك وصيّةً تصبّ في مصلحة الولد.

- كانت ستحاول الاحتفاظ بالوصيّة لنفسها إذن.

- ومَن قال لك إنّها لم تفعل؟

- أفكاركِ مشوّشة. كانت ستسارع إلى إشهار الوصيّة على الملأ.

- صحيح -أقرَّت الزوجة وقد انتعشت، بل انتابتها رعشة قلق طفيفة.

- لا يمكن لأحدٍ أن يتكهّن أبداً بما يخطر في بال تلك المرأة -استأنفت العجوز- فلننتظر بضعة أيّام. غير أنّي أؤكّد لك أنّه كتب وصيّة. وكان يحملها معه على الدوام. وعندما حلّت به المصيبة، السبت الماضي، تذكَّرْ يا زيبيديو، أتيتُ إلى هنا وأنا أستغيث، فأسْعفتَه أنت ووضعته على السرير، بينما كانت الخادمة تهرع لمناداة الطبيب. أنا مَن وضعت ثوب بازيليو المسكين على الكرسي، ولم يمسّه أحدٌ إلى أن فتّش في جيوبه عن أوراق بعد ساعات، وكان في جعبته أوراق، أجل، ما عدا تلك.

كان زيبيديو ينصت بانتباه شديد كما لو أنّ ما يسمعه جديدٌ عليه. كان ينتظر التفصيل الذي يدلّ على أنّ العجوز تعرف أين الوصيّة، فإذا هو يغتاظ كلّما ماطلت في طرح ذلك التفصيل.

- أعْطِني الخلاصة، هل رأيتِ الوصيّة بعينيكِ؟ هذا ما يهمّني معرفته، وما تبقّى محض هراء.

- لا لم أرها، لكنّي متأكّدة من أنّه كتبها. ثمّ إنّي لا أجيد القراءة ولم أكن أفتّش في أوراق المرحوم بازيليو.

- قد تكون الوصيّة تصبُّ في مصلحتنا لذا انتزعتْها الأفعى منه.

-ارتجلت ماريّا كاتيرينا باركاي الساذجة.

- ما الذي تقولينه! -صاح الزوج- لم يكن أخي مغفّلاً لينخدع إلى هذا الحدّ. وإنّكنّ أيّتها النسوة تحسِنَّ صنعاً إن أبقيتنَّ ألَسنتكنَّ في أفواهكنّ، لأنّ كلَّ كلماتكنّ بذرةٌ شرّيرةٌ ومرميّةٌ في مهبّ الريح.

لم تعترض العمّة آنّيا، فهي تكنُّ احتراماً له أيضاً، أو رضوخاً خدمياً بالفطرة، لكنّها لم تتمكّن من إخفاء غلِّها الصامت والعدائيّ الذي زاد من تقاسيم وجهها قسوةً.

انتبهَ الرجل للأمر فرفع صوته أكثر كما لو أنّها ردّت عليه بطريقةٍ سيّئة.

- الحال هي كما يلي: إن كنتِ تُثرثرين بهذا الشكل أمام الناس، والناس لئام في طبعهم، فسوف يقولون إنّ أهل المتوفّى أخفوا وصيّته. تماماً مثلما كانت تصيح به في الأمس تلك المرأة التي تلقّبينها بالأفعى.

- لستُ امرأةً ترمي الكلام على عواهنه يا زيبيديو، ولم أثرثر مع الجارات يوماً. وإن كنتُ قد تحدّثتُ الآن فلأنّك أنتَ مَن طلب ذلك.

- لم أطلب ذلك حقيقةً، إنّما جمعتُكما هنا لأخبركما بفكرتي، التي - على الرغم من كلّ هذا الهذر - تبقى على حالها: علينا أن نُعِين المرأة لأنّ ابنها

هو ابن بازيليو. أمّا إذا ردّت بالسوء، فإنّها تسيء إلى نفسها، هذا شأنها، فنحن لسنا في حاجةٍ إلى امتنانها.

- صحيح، صحيح -ردّدت الزوجة وهي تنظر إليه تارةً وإلى العجوز طوراً.

أضمرت العجوز جراح غلّها في وجهها، إذ إنّ كلام زيبيديو ضربها في الصميم. بيْدَ أنّ الجوَّ بات مشحوناً بأنفاس العداء، والريبة المتبادلة وإن متفاوتة، وتمدّد ظلامٌ لا يمكن وصفه بينهما. شعر بالحاجة إلى النهوض وإنهاء المحادثة، مع أنّه ما زال راغباً في مواصلة الصياح واستفزاز العجوز. ثمّ طاف يتأفّف باحثاً عن شيءٍ لا يعثر عليه، وفي النهاية خرج وصفق باب الدار.

استمرّت المرأتان في الحديث حول الموضوع، وكانت الزوجة حينها تميل نحو أفكار زوجها، ليقينها من أنّه كان سيفعل ما يروقه في نهاية المطاف، في حين أنّ العجوز رغم تعبيرها عن عدمِ رغبتها في التدخّل في الأمر ما فتئت تبطِّن خطابها بعباراتٍ غامضة تولِّد شعوراً قاتماً بالخوف لدى ماريّا كاتيرينا باركاي الرقيقة.

- لقد أذنب بازيليو المسكين مع تلك المرأة، سامحه الله. بل إنّ ذنبه مزدوج، تارةً لأنّه ارتكب الزنا، وأخرى لأنّ طبيعة تلك المرأة شيطانيّة. وهذه ذنوبٌ يحمِّلُ اللهُ وزرها سلالةَ الرجل المذنب كلِّها. نسأل الله اللطف.

وراحت ماريّا كاتيرينا تصلّي في سرّها من أجل ابنها، كما لو أنّ خطراً حقيقيّاً يتوعّده.

*

وكان زيبيديو من جهته يراوده حدسٌ بالشؤم. ها هو يمضي على

صهوة جواده الأسود، متسربلاً بما يوحي أنّه فارسٌ شريد، على الطريق المضيء صوب الحقول المتماوجة، حيث يتناوب امتداد الشعير والحنطة مع بساط الرتم والخلنج، ومع المروج الوسيعة الزاخرة بألوان البياض والبنفسج من أزهار النعناع والأقحوان.

وكان الصفاء الذي يكاد يكون صيفيّاً يبهج المنظر: ثمّة فراشاتٌ كبيرة صاخبة الألوان، وعناكب بيضاء وحشرات خضراء ومزخرفة تلهو وتتحابّ على آجام الأقنثة المبهرة التي تعترض الطريق. وقد بدت معالم السرور على الكلّ، حشراتٍ وبهائمَ. وكانت الطيور الصغيرة تقفز من أعشاشها لتحلّق فوق البلّوط الذي يبسط ظلّه الأسود على خضرة القمح.

وفي المدى تتبدّى الجبال التي أَرهقتها الشمس، وأحراش السنديان المزدانة بمطالع أزهارها. والنسائم المنعشة تهبط من علٍ فوّاحةً تبتسم بفضلها أوراقُ الشجر وتهمهم.

كان الرجل على حصانه يحمل علامة الحِداد ويجتاز فرحة الجماد البريئة، لكنّه كان بين الحين والآخر يسمح لأنفاس الجبل النقيّة بأن تحرّك جوانحه وتُثلج صدره، ذاك الجبل الذي يذكّره بشيءٍ يصعب تحديده، المكان البعيد حيث عاش طفولته المبكرة، بل وحياةً سابقةً لحياته أيضاً.

ما زال يهجس بالميراث: كانت المسألة تقلقه إلى درجةٍ يكاد ينسى فيها فجيعته بوفاة أخيه. خُيِّل إليه أنّه لا يزال يسمع صوت المرأتين في دخيلة نفسه، صوت العمّة المتزّمت والثقيل، وصوت زوجته الوديع والساذج. تسوِّي زوجته كلَّ الأشياء ببساطتها، لو أنّه كلّفها بإدارة الأمور لمضى كلُّ شيءٍ في هذه الحياة على أحسن وجه، فكلُّ شيء يُصلَح بالوداعة وبعض الفتور.

وكان نادماً لأنّه لم يشاورها هي حصراً، ففي الواقع ما العجوز إلّا

مجرّد خادمة، تتقاضى راتبها الشهريّ وتوفّره، فما الذي يسمح لها بالنظر في شؤون العائلة؟

- إن لم تلتزم الصمت فبوسعي أن أمسكَهَا من ذراعها وأطردها بعيداً.

غير أنّ تحريضها وحده كان يغذّي قلقه.

عندما وصل إلى الأرض وجد خادميْن يعملان فيها: شقيقين صغيرين أسمرين وهزيلين، نهشهما العياء. نهضا لأداء تحيّة شبه عسكريّة له، لأنّه لم يكن ودوداً مع الخدم. كان في منتهى الدقّة، يدفع أجوراً عالية ولكنْ، كلٌّ امرئٍ في مستواه.

لم يردّ حتّى على كلمات العزاء التي توجّه بها الفتيان إليه بنبرةٍ جادّة ورزينة. سوى أنّه أمرهما بعدم نزع السرج عن ظهر الحصان، ثمّ سأل إن كان ابنه بيليا مرَّ بالأرض.

- جاء نحو منتصف النهار، ثمّ مضى إلى سانماتيا.

سانماتيا هي المِلْكيّة الكبرى للمتوفّى، وتتكوّن من كروم ومزارع ومراعٍ رحيبة تحتضن كثيراً من المواشي، وتبعد قرابة الساعة علَى طريق أرضِ زيبيديو، باتّجاه بداية الوادي قرب سفوح الجبال.

لم ينسَ بيليا أن يذهبَ لتفقّد أرض عمّه، وخيراً فعل.

عاد الخادمان إلى عملهما، كانا يعتنيان بالكرمة وينزعان الأغصان الزائدة عن دواليها، وقد اعتادا العمل في صمتٍ متباعدين، لكنّهما في ذلك اليوم كانا متجاورينِ يتجاذبان أطراف الحديث همساً. فإذا بأحدهما يذهب لدى السيّد الذي كان قد ابتعد قليلاً وانحنى ليشاهد الدوالي.

- عمّ زيبيديو -قال بنبرة احترام- لعلّ العمّ بازيليو قبل أن يموت قد أخبركم بأنّي مدينٌ له بعشرة سكودات.

نظر إليه السيّد من الأسفل، باحتقار، وغمغم من دون أن ينهض:

- لم يكن لديه وقتٌ حتّى ليودّعني، فتصوَّرْ أن يكون قد فكّر في نقودك.
- لا يهمّ، فأنا مدينٌ له بها عموماً، وحالما توافر لديّ المبلغ أرجعتُه. أو إن كنتَ تفضّل يا عمّ زيبيديو، بإمكانكم اقتطاعه من أجرتي ومن أجرة أخي.
- اغربْ عن وجهي أنت ونقودك! إنّنا نتصدّق كثيراً باسم المتوفّى لتدوم ذكراه. احتفظ بنقوده لك!

نظر إليه الخادم مشدوهاً بعض الشيء، لأنّ خبرته علّمته بأنّ آل باركاي ليسوا بالأسخياء. لمع الفرح الوضّاء في عينيه التعيستين، وتردّد برهةً بين الإلحاح وعدمه، وقرّر عدم الإلحاح، فقد أدّى واجبه وأقرَّ بدَينٍ تجاهله السيّد، جزاه الله خيراً على حسن ضميره.

- عوّضك الله إذن -قال متأثّراً- أنا وأخي سنتذكّر طيبتك وسنصلّي لك وللمرحوم.

وعاد إلى جانب أخيه، واستأنفا العمل بعزمٍ أصلب ممّا سبق.

لكنّ السيّد لم يبدُ سعيداً. فحينما نهض أحسَّ باحمرار وجهه من الغيظ، لأنّه هو نفسه لم يفهم سبب كرمه الفجائيّ. لو كان باستطاعته لتراجع عن كلمته، راح يلعن الخدمَ في سرّه والحال هذه، ويرسل إلى الشيطان تلك الصلوات التي وعداه بها من أجله ومن أجلِ روح الفقيد.

وابتلع الشيطان تلك النقود العشرة أيضاً.

*

اعتاد السيّد البقاء طويلاً في الحقل لمساعدة الخدم في العمل وتفقُّد كلّ شيء بدقّة. وكان يأتمن ذينك الفتيين الماهرين اللذَينِ نشآ في الأرض وكانا يحبّانها كما لو أنّها ملكٌ لهما.

غير أنّه يومئذ كاد يصاب بالملل من زيارة أرضه. لديه رغبةٌ عارمة في المضيّ، تجبره على الإسراع في الذهاب إلى مكانٍ آخر. كما إنَّه شعر بامتعاضٍ مفاجئ من الخادمين رغم إثبات نزاهتهما توّاً، وقد يكون هذا هو السبب بالضبط.

أثناء اجتيازه حقلاً مزروعاً بالفول الذي سيُحصَد ويُجفَّف حالما ينضج، رأى صرّةً ممتلئة ومربوطة من رأسها، وسرعان ما ظنّ أنّها مكتنزة بالفول الطازج.

لا بدّ أنّ الخادمين حصداها من وراء ظهره ليأخذاها إلى بيتهما أو يبيعاها. لمَ لا يكونان لصَّين هما أيضاً؟ هل هما أبناء أو أحفاد قدّيسين؟ جسَّ الصرّة بقدمه: قاسية لكنّها ليست منتفخة كما ينبغي أن تكون عليه صرّةٌ ممتلئة بالفول. التفت ليرى إذا كانا يريانه، لكنّ سيقان الفول كانت عاليةً تغطّي جسمه المنحني. فكَّ رباط الصرّة ورأى أنّها معبّأة بالعشب المطحون والممزوج بالخشخاش ما أكسبه لوناً ضارباً إلى الحمرة.

*

ثمّ انطلق ثانيةً من دون أن يحيّي الخادمين اللذيْنِ عذراه، لا بل اعتبرا مزاجه الكدر تصرُّفاً سليماً: لا يمكن للمرء أن يضحكَ وأن يفتحَ قلبه بعد ثلاثة أيّام من وفاة أخيه المباغتة.

وكان زبيديو يمضي وقد حجب وجهه بقلنسوة معطفه لتقيه أشعّة الشمس، ما دام آثرَ البقاء منغلقاً على ألمه الغامض.

لكنَّ الخادمين من أسفل الكرم رأياه متّجهاً صوب الجبال عوضاً عن التوجّه إلى البلدة لاسيّما أنّها ساعة العودة. ربّما أراد أن يلتقيَ ابنه أو أن يتفقّد ملكيّة شقيقه هو الآخر. فالموتى قد رحلوا في الواقع، وإنَّ الله أمَرَ الأحياء بمواصلة حياتهم وأداء واجباتهم.

غير أنّ زيبيديو لم يكن واثقاً من أنّ الله هو مَن أوحى إليه بالتوجّه صوب أرض أخيه. لم تكن تلك نيّته في البدء، وكان آنذاك يمضي على مضضٍ مدفوعاً باضطرابٍ عصابيّ، وبرغبته في ملاقاة بيليا خصوصاً والعودة بصحبته.

كان الفتى بيليا في السادسة عشرة من عمره وما زال يتّسم بالطيش الصبيانيّ البريء إضافةً إلى رجاحة العقل والنضج في آنٍ واحد: وكانت معاشرته تبعث الفرحة في قلب أبيه الذي يشعر باستعادة شبابه كلّما كانا معاً.

- ثمّ إنّه وسيم -قال في سرّه بفخرٍ وودّ- وطويلٌ، ومشيقٌ، ومنتصبٌ، ورقيقٌ مثل جذع الحور، عيناه تضحكان من بعيد في وجهه النظيف كوجه صبيّة.

وكان في الأثناء يمضي. ما زالت الشمس عاليةً رغم ميَلانها ناحية الغرب: الظلال تتمدّد، ووميض الأوراق والأسل يغدو أكثر حيويّةً، والهواء أكثر عطراً.

كانت الجبال تقترب بجلاميد صخرها الصوّانيّ والشبيه بأطلالٍ ضخمة، وكانت الظلال إبّان أفول الشمس تتمدّد كلّها إلى الأعلى كأنّها تحاول التسلّق نحو القمم.

صار المنظر حينذاك مأهولاً بالأسراب والقطعان، بسبب وقوعه قرب النهر الذي أبرز مرفقه الفضّيّ ما بين الجبل وبداية الوادي.

وكانت أرض المتوفّى هناك في الأسفل، نفيسة القيمة، لأنّها تحاذي مجرى المياه الذي لا ينضب، حتّى بعد فترات الجفاف الصيفيّة وأغلب الشِحّ الشتويّ أيضاً.

تخلّى زيبيديو عن الطريق الرئيسة ليكسب الوقت، واتّخذ درباً فرعيّاً بين سورين بائدين يهيمن عليهما العوسج. الدرب خطير، إذ اعتاد المنحرفون

الاعتداء على عابريه ونهبهم. وعلى الرغم من أنّه لم يحفل يوماً لخطورته، فقد اعتراه شعورٌ بالكآبة حينذاك لم يجرّب مثله من قبل، شعورٌ لا ينجلي إنّما يزيد خناقه ضيقاً على قلبه. خُيِّل إليه أنّ لديه أعداء، يتربّصون به في كمينٍ خلف السورين، وهو الذي ما كان لديه أعداء على الإطلاق.

هناك عينان تومضان من خلال السياج فعلاً، وهذا لمعان نصل خنجرٍ هنا، وتلك فوّهة بندقيّةٍ هناك. يا لك من أحمق يا زيبيديو، إنَّ شمس المغيب هي التي تمازحك بهذا الشكل.

وبدا أنّ هديل الحمام، وتغريد الشحرور، وصرصرة الجنادب في مطالعها، تسخر منه بترنيمها اللامبالي، الطبيعة كلُّها تضحك، وحتّى أرهف عروق النبات والأعشاب السامّة تراقص نسائم المغيب: كلُّ شيء يتنعّم بفرحه، حتّى الظلال تنبسط نحو القمم لكي تختفي بعد أطول فترة ممكنة؛ أمّا أنت، أيّها الإنسان، وحدَك تنهش قلبَك بأسنانك نفسها. العدوُّ في باطنك بينما تظنّ واهماً أنّه خلف السياج، وهذا كلّه لأنّك نسيتَ أنّ الله يريد لك أن تعيش يوماً بيوم مثل طير السماء ونبات الحقل.

*

انتابه شعورٌ بالارتياح أخيراً عندما خرج من الدرب. كانت أراضي شقيقه الراحل كلّها هناك أمامه، مثلما كان يراها في السابق ويعتريه هاجس الجشع بأن يستوليَ عليها يوماً ما، منبسطةً على السفح المشمس، حيث ينسكب الجبل في الوادي والمروج باتّجاه السهل. تتبدّى كلّ الأسوار الحجريّة التي تطوّق المِلكيّة بالتواءاتها، وكلّ ألوان النبات الذي يغنيها، من خضرة السنديان الداكنة إلى خضرة المراعي الزمرديّة، ومن خضرة الكروم النضرة إلى رماديّة الزيتون والصبّار، وحمرة الأبقار وسوادها في

المراعي، وبياض الغنم، وسماويّة الصفصاف الباكي الذي يترك عفرته الجزعة على امتداد النهر.

هناك منزلٌ صغير مبنيٌّ من الحجر كليّاً، سقفه من الآجر الأحمر، يشرف على الأرض. وكان زيبيديو من مكانه في الأسفل يتناهى إلى مسمعه نباحُ الكلب وأصواتُ الرجال الذين يعملون في الكروم.

لكنّ ليس هذا وحدَه ما أعاد الحياة وحسَّ البهجة إلى قلب الرجل: ففضلاً عن سنديان المراعي والبيت المتربّع فوق الأراضي، كان يرى شخصاً طاغي الحضور على كلّ الأشياء، مع أنّه كان عند أعتاب الأرض بل خارجها تماماً، أمام البوّابة الحديديّة المغلقة: ابنه بيليا، عائداً إلى البيت بعد أن تفقّد المزارع.

اتّجه الأب لملاقاته كما لو خشي أنّه لن يلقاه أبداً.

*

كان الشابّ على صهوة الحصان أيضاً، بل كان يمتطي مُهراً من أملاك عمّه. ما أجمل ذلك المُهر الأسود، الزاهي واللامع كأنّه مطليٌّ بالدهن، له غرّة المشاكس إذ تنسدل على عينيه الحزينتين والعابستين اللتيْنِ تفكّران بأداء حركةٍ شرّيرة، فإذا بأساريره تنفرج لدى رؤية الحصان العجوز والكستنائيّ الذي يركبه زيبيديو. هزَّ المُهر أذنيه وذيله وذؤابته، لكنّ ترحيبه غير وديٍّ، طالما لن يروقه أن يعود أدراجه مع تلك الصحبة، في حين كان توّاقاً إلى حرّيته المطلقة لينصرف إلى نزواته كأيّ دابّةٍ فتيّةٍ وهائجة لم تقتنع بعدُ أنّها رُوِّضَت.

أمّا الحصان الكستنائيّ العجوز فبدا وكأنّ لا شيء يثير اهتمامه: كان يمضي متبصِّراً ومتعباً لكنّه مستسلمٌ لمصيره، حسْبُهُ أن ينتهز شرود صاحبه

لكي يطيل ناصيته وينتزع غصناً أو باقة عشب.

- ما الذي جاء بكَ إلى هذه الأرجاء؟ - سأله بيليا. اتّشحت نبرته المبتهجة ببعض السخرية، كأنّه يعلم مسبقاً أنّ والدَه أيضاً سيأتي لتفقّد الأرض في ذلك اليوم تحديداً. إذ إنّ الزمن سرعان ما يمسح دموع الوَرَثة.

وكاد زيبيديو يجيب: لقد جئتَ إلى هنا قبلي، لأنّ أملاك عمّك في نهاية المطاف هي لك أكثر ممّا هي لي.

لكنّه لم ينطق بها، لم يفتح فمه إلى أن صار على مقربة من الفتى بحيث يَسَعه التحدّث إليه همساً.

- لقد أخطأتَ في التسرُّع للمجيء إلى هنا -قال بلهجة تأنيب- وقد أتيتُ وراءك لأخبرك بذلك. ما الذي فكّر فيه خدمُ عمّك المرحوم؟

- لقد كانوا سعداء جميعاً برؤيتي! بل كانوا ينتظرونني! قال لي باولو راعي الغنم إنّه رأى حلماً مقيتاً: أنَّ العمّ بازيليو ترك ملكه لعشيقته، وأنَّها أتت لتستحوذ على المُلك، غاضبةً ومتعجرفة لكأنّها زوجة الشيطان. «أردتُ أن أقتلها، عسى أن ينجّيني القدّيس أنطون». قال باولو «وأردتُ أن أدفنها بين الصخور، وهذا ما كان سيحدث لو أنّ الأمر وقع بالفعل!»، فضحك الجميع، لأنّه كان يتحدّث بجديّة وما زال مشتّت الذهن من الحلم. حتّى الآخرون قالوا: «خيرٌ أن تدخل الثعالب والجراد واللصوص، فهؤلاء بوسعنا التصدّي لهم، إلّا تلك المشعوذة».

التزم والده الصمت.

- ولكنْ، ما دُمتَ قد وصلتَ حتّى هنا، لِمَ لا تدخل؟ -استأنف بيليا محاولاً العودة نحو البوّابة. غير أنّ المُهر كان يتمنّع، لم يشأ الاستدارة

إلى الخلف. ومن جهته لم يكن زيبيديو راغباً في الدخول، أو إنَّ لديه رغبةً بالأحرى لكنّه كان يقاومها مثلما فعل المُهر بيد بيليا.

- فلنذهب، لقد تأخّر الوقت. سيُقلق غيابنا والدتك.

مضيا معاً. كان المهر يتراجع ويتخبّط كأنّه يخجل من مرافقة الحصان العجوز؛ يلوِّحان بذيليهما لإبعاد الذباب كلٌّ على طريقته، الفتيُّ بسخط والعجوزُ باعتياديّةٍ وهوان.

- إنّ باولو الراعي يخاف من تلك الساحرة، ولا عجب فهو خَرِفٌ مثل القدّيس أنطون، وساذجٌ أيضاً. -ألحّ الفتى وما زال يسخر من خرافات ذلك الخادم- يخاف أن تدبِّر المرأة مكيدةً تُنزِل البلاء بالمواشـي، لذا ردّدَ التعويـذات، وفَـرَش أسـوار مزرعـة الزيتون والحظيرة بأوراق الزيتون المبارك وصلبان القصب وخزعبلات أخـرى. والآخـرون يؤمنـون بذلك جميعاً. لأنّها اعتـادت تلقّـي الهدايا، كان العمّ بازيليو المسكين يرسل إليها كلَّ شيء كما لو أنّه يزكّي بالعُشْر لها بدلاً من الكنيسة. ومن المؤكّد أنّها ستتحسّر على انقطاع الجبن الطازج لشطائرها، فضلاً عن الفول وما هنالك. أنا لا أصدِّق أنّها جبّارة، فهذه أقاويل الخدم ليس إلّا. لكنّ هذا الحيوان يبدو ساخطاً اليوم كأنّه ممسوسٌ من الشيطان. -أضاف بينما كان المهر يثور ويسبّب الإزعاج.

- أنا أيضاً لا أصدِّق -قال الوالد- لكنّنا بكلّ الأحوال لن نستهين بها ولن نستفزّها. فهي قادرة. هل تعلم أنّها كانت تصيح البارحة أنّنا أخفينا الوصيّة التي تدعم حقوقها؟

- أجل، سمعتُ النسوة يثرثرن. وقد عرف الجميع بما وقع، حتّى خدمنا وخدم هذه الأرض. لا أعلم حقّاً كيف لهؤلاء أن يعرفوا كلَّ

شيء كالثعالب على الرغم من أنّهم يسكنون الأرياف.

اغتاظ الوالد أكثر ممّا كان عليه.

- أجل، لبعض الحقائق أجنحة. لعلّ الريح تستمتع بنقل الشرور. وما الذي قاله الخدم هنا؟

كان قلقُهُ من رأي مَن لا يجرؤ بعدُ أن يصفهم بخدمه أضعافَ قلقِهِ من خدمه.

- وما الذي سيقولونه؟ إنَّنا أحسنَّا صنعاً لو كان صحيحاً.

- بيليا! -قال الوالد ممتعضاً- وهل أدليتَ بإجابةٍ سيّئة؟

- ولماذا أُدلي بإجابةٍ سيّئة، إن كنتُ من ذلك الرأي أنا أيضاً؟ لو كنتُ قد أُبلِغتُ بوجودِ ورقةٍ تَصبّ في مصلحة تلك المشعوذة لبحثتُ عنها ومزّقتُها.

- وبذلك كنتَ ستقترف خطيئةً مميتة وتصرُّفاً مشيناً. القانون يعاقب على مثل هذه الأشياء.

- القانون من صنيعة البشر، يغصُّ بالخدائع. القانون، أصنعه بنفسي، وأجتزئ منه ما يفيدني.

- أنت لا دِين لك يا بيليا، حتّى أمّك تقول ذلك، مع أنّها لا ترى الأشياء إلّا من خلال عينيك. إنّ الله ينهى عن المساس بما ليس لنا.

- ما لعمّي من حقّي.

- هناك ابنه.

- وما أدرانا نحن إن كان ابنه؟ لقد أبرمت تلك الشّريرة صفقةً مع الشيطان، هذا ما اتّفقَ عليه الناس على الأقلّ. في حين كان عمّي بازيليو رجلاً مستقيماً، ولو أنّه كان واثقاً من أبوّته للفتى لاعترف به شرعيّاً أو لتبنّاه على الأقلّ. هذا ما يقوله باولو أيضاً، وهو رجلٌ

متديّنٌ وورع.

- صحيح. -أقرّ الأب- لم أفكّر في هذا. من الأفضل عموماً ألّا نعود إلى ذلك، ماذا سنجني من الحديث في الأمر؟ لقد بات كلُّ شيء واقعاً. ولكنْ -أضاف بصوتٍ رتيب كمن لديه فكرةٌ راسخة- ينبغي أن نتدبّر أمْرَ المرأة وابنها مهما كان، للحيلولة دون كلام الناس.

- كلام الناس حاصلٌ لا محالة. لو أنّك قدّمتَ لها هديّة لقيل إنّها أمست عشيقتك. هل تظنّ أنّهم لا يعلمون بأنّك كنتَ عندها ليلة أمس؟

- ويلاه! -صرخ الرجل وأوقف حصانه، فاهتاج المهر من تلك الصرخة وراح يعدو ويعفّر من كلّ الجوانب. وهكذا قفز من الدرب إلى الطريق حيث تابع ركضته بجنونٍ أكبر. كان بيليا ذا عزم ولم يتزحزح من على السرج، محاولاً بكلّ قواه أن يكبح جماح الدابّة الرعناء، بل بدا مستمتعاً مثلما كان في سباقات المهر التي فاز في أحدها. اختفى عند منعطف الطريق بسرعة، وظهر ثانيةً في البعيد كنقطة صغيرة وسوداء، واختفى مرّة أخرى.

وفي الأثناء خرج والده أيضاً من الدرب، وكان الكرب يضيّق على قلبه من جديد، لقد خشي أن يسقط بيليا وأن يتأذّى. وكان يكيل اللعنات المقيتة من دون أن ينتبه، ويفكّر ببيع ذلك المهر الممسوس بأقرب فرصة. تذكّرَ أنّه كان ذات مرّة في عيد يسوع الملك في بارونيا وأنّه شهد سلسلةً من المصائب بسبب مهرٍ مسروقٍ كان اللصّ بنفسه يمتطيه.

الأغرب أنّ الحصان العجوز أيضاً، والذي حافظ على هدوئه ورويّته، بدا أنّه فُتِنَ بغتةً بالمثال السيّئ، فأخذ يَخِبُّ ويعفّر وينصب أذنيه بحركةٍ ثقيلة. وما كان ليعود إلى رشده ويستأنف السير مهاناً ومطأطِئ الرأس

لو لا لكَمَهُ صاحبُه على ناصيته مراراً، إذ لم يستهوِ اللعبةَ ولم يتمكّن من إيقافه. رأى زيبيديو من البعيد أنّ ابنه استطاع إيقاف المهر، ولكنْ بعد أن استوى أرضاً وشدَّ اللجام المعقود على رأس الحيوان المنحنية.

كان المهر يتصبّب عرقاً وقد بلّل بلعابه الدامي اليدَ التي تكبحه، وكان الفتى شاحباً حتّى أثار هواجس أبيه.

- ما بك؟ بيليا! ثمّة دماء على يدك.

- حسناً -صاح بيليا مستاءً- أصبح هذا الجنّيُّ كلباً مسعوراً، لقد عضّني.

انتاب الوالدَ غضبٌ عارم ولو كانت البندقيّة في حوزته لقتل بها المهر.

- غسّل يدك بهذا -صاح وهو يُخرِج من زاده قربة ممتلئة بالنبيذ.

أمسكها بيليا وارتشف النبيذ.

- مفعوله في الحشا أقوى. -قال وهو يستعيد بهجته.

ولم يشأ حتّى أن يضمد يده، التي لم تخدشها أسنانُ المهر إلّا من ظاهرها في المحصّلة. وأعلن المهر هزيمته، بعدما أُنجِزَ ترويضُهُ واندهش من اللكمات التي ما انفكّ الفتى يسدّدها على شدقه وعينيه. سوى أنّه كان يفتل رأسه ويضرب بأحد حافريه الخلفيّين أرضاً كما لو أنّه يطلب إنهاء المسألة والانطلاق مجدّداً.

انطلقا، ولم يستأنف الوالد النقاش الذي قاطعته هوجةُ المهر إلّا عندما أشرفا على البلدة.

- من الذي أخبرك بأنّني كنتُ عند تلك المرأة ليلة أمس؟

لم يجرؤ زيبيديو كذلك أن يسمّي ليا باسمها، على الرغم من تحاشيه النعوت الفظّة التي يطلقها الآخرون بحقّها.

- ألمحَ لي الشقيقان بينتوري، صديقاك اللذان يدّعيان العفّة. ثمّ أخبرني

الراعي باولو، قال: ربّما ظنّ أبوك أنّه يُقدِم على فعلٍ حَسَن، لكنّ تلك الساحرة لا تستحقّ.

- مَن هؤلاء ليتدخّلوا في شؤوني؟ أجل، صحيح، ذهبتُ إليها لأطيِّبَ خاطرها، ولكي تكفّ عن الفضائح. عموماً، لا تخبرْ أمّك والعمّة آنّيا!

- أوه، لا بدّ أنّهما على دراية!

- فليكن، دعهما تدريان! -صاح زيبيديو، لكنّه بدا متوجّهاً بالقول إلى نفسه أكثر منه إلى ابنه.

*

كان قد حلَّ المساء عندما وصلا إلى البيت. كلُّ شيء مغلقٌ وغارقٌ في الظلام، سوى أنّ مدخنة السطح تنفث بصمتٍ خيطَ دخانٍ يتبدّد في ضياء القمر.

حاول الرجلان كبْحَ خطوات الحصانين للدخول بهدوء ما أمكنهما، وكان المهر متعباً وطيّعاً آنذاك، يشارك في الحزن العذب الذي يطغى على تلك الأمسية.

وكأنّ البوّابة انفتحت من تلقاء نفسها، وأدخلت الفارسين، ثمّ انغلقت بصمت. كانت الأسرة كلُّها مجتمعة داخل البيت، بمنأًى عن أيّ خطر.

النار تتوّهج في المدفأة، والعشاء جاهز، وقد خلدت العمّة آنّيا إلى النوم من قبلُ لأنّها شعرت بألمٍ في كليتيها، وسُرَّ زيبيديو لأنّه لم يرها. ها قد عاد كلّ شيء إلى سابق عهده عندما لم يكن من داعٍ للانغلاق في الداخل لمجرّد البوح بكلمتين وتناول العشاء بسلام، سوى أنّ ظلّ المرأتين المتدثّرتين بالسواد يتمدّد بكثافةٍ كبرى على البلاط والجدران.

لكنّ الخادمة أطلقت صيحةً هستيريّة زائفة ومبالَغاً فيها نوعاً ما، حين رأت يد بيليا بينما كان يرفع الزاد عن الحصان ويعطيها إيّاه.

- ما الذي فعلْتَه بيدك؟ أيُّ وحشٍ هذا الذي عضّك؟

- اذهبي إلى الجحيم. ليست هذه بلدغة رتيلاء(*).

- أمّا أنا فأرى أنّها لدغة رتيلاء حقّاً.

هرعت الوالدة لترى، وقلبها يخفق بشدّة في صدرها البدين، إذ إنّ بيليا لا يزال طفلاً في عينيها، وكانت أيُّ شوكةٍ أو حجرةٍ حتّى الأمس تمثّل خطراً يثير فزع الأمّ لديها.

وكان من جهته يحاول إخفاء يده مثل طفل آذى نفسه بنفسه تماماً.

- لا شيء يدعو إلى القلق، خُدِشَت يدي بأغصان العوسج.

- ألم يعضّك كلبٌ ما يا ولدي؟ قل الحقيقة.

- أقسم لكم أنّها ليست عضّة كلب. دعوني وشأني وأطعموني.

*

كانت الخادمة تأكل مع أسيادها، سوى أنّها تنهض بين الفينة والأخرى لتأتي بالأطباق والوجبات: كأنّها واحدةٌ من العائلة، مع أنّ زيبيديو في ذلك المساء كان يفضِّل لو أنّها لا تحاط علماً بزيارة ابنه إلى أراضي الفقيد المرحوم. وكان يحدّق إلى وجهها كثيراً بينما هم يأكلون، وخُيِّل إليه أنّه يلاحظ في ذلك الوجه المدبّب الذي يذكِّره بوجه ليا ملامحَ استهزاء. أو ربّما كان يتوهّم ليس إلّا، طالما أنّ كلَّ شيء بات يثير في طويّته الريبة.

في حين كان بيليا مسروراً، وينقل تخاريف الخدم ويسخِّفها.

- ما بكما؟ -قال متوجِّهاً لأمّه والخادمة فجأة- لا تنقطعان عن النظر إلى يدي، ستجلبان لي البلوى.

(*) نوع من العناكب. (المترجم)

كانت الفتاة جالسةً إلى المائدة، لا تفتح فمها احتراماً لأسيادها، فلم تعلِّق. ولكنّها ما إن نهضت وبدأت تفرِّغ الطاولة غمغمت كأنّها تحادث نفسها:

- لاتّقاء البلوى ينبغي الذهاب إلى ليا وسلب أحد مناديلها لتُضَمَّد به اليدُ المتأذّية.

- تباً لكِ، ليس بي أيُّ أذى - صاح بيليا وهو يهزّ يده ليبيّن قواها - علامَ تراهنين أنّي سأهشّم رأسكِ لأثبت لكِ أنّي بخير؟

وثب إلى الفتاة، لكنّه كان يمازحها، وارتضى إمساكَها من زنديها وخضَّها يميناً شِمالاً إلى أن أصيبت بالدوار.

*

تورّمت يده خلال الليل، واتّخذت شكلاً غريباً، يبعث على الضحك تقريباً.

- تبدو يد قسٍّ بَدين -فكَّر في نفسه وهو يحاذيها بيده الأخرى التي ظلّت هزيلة ورقيقة- وهذه يد امرأة!

لم تكن توجعه، لذا لم يعبأ بها. كان يذكر أنّ إحدى قدميه قد ورمت إثر دوس شظيّة زجاج منذ وقتٍ قصير. كما إنَّه منذ أن كان صبيّاً قد اعتاد التأذّي بفعل الأشواك والحصى والمسامير، وقد تلقّى رفسات الحصان مراراً من دون أن يشعر بضررٍ كبير.

لكنّ تلك اليد المتورّمة كانت تشعره ببعض الضجر جرّاء ما تسبِّبه من قلقٍ لوالدته. ينبغي أن يحاول إخفاءها عن أمّه، وكذلك عن الخادمة.

استيقظت النسوة مع أنّ الصبح قد طلع توّاً، وأَثرن ضجيجاً بحفيف المكانس وهدير مِطحنة القهوة. وكان بيليا ينام في غرفةٍ رحبةٍ، أرضيّة،

تطلّ على الفِناء عبْر النافذة، فتح دفّتيها ورأى أنّ الخادمة تكنس تحت السقيفة قبالة الإسطبل.

- روزا -صاح- أعدِّي السرج على المهر، أريد أن أخرج فوراً، لأغتنم هذا النهار الجميل.

كانت الخيول في الإسطبل تقعقع، كأنّها تطالب بالخروج على الفور في ذلك الصباح الجميل، لكنّ الفتاة تابعت عملها كما لو أنّها لم تسمع.

كيف أُخفي يدي؟ فكّر بيليا، وتذكّر كم من مرّة قفز من تلك النافذة ليخرج من البيت خلسةً عن أمّه.

- روزا، هل أنتِ صمّاء؟ هلّا أعددْتِ الزاد بالخبز لوجبتين!

نظرت إليه الفتاة من الأسفل، من تحت عتمة السقيفة، فتملّكه انطباعٌ بأنّها تقرأ أفكاره.

خرجت أمّه إلى الفِناء أيضاً، ممسكةً بأهداب مئزرها الذي ملأته بالحنطة وبدأت تنثرها للدجاج، وكانت عيناها المنتفختان متوجّهتين نحو النافذة.

- بيليا، ما حال يدك؟

- لا شيء -قال لكنّه لم يُبرز يده- قولي لروزا أن تعدّ سرج المهر.

- إلّا المهر، إلّا المهر، يا ولدي. دعه في البيت، وامتطِ الفرس.

وافق على الفور، وذهبت روزا لتفكّ عقال الفرس الوديعة التي تستخدمها النسوة عندما يذهبن إلى الريف.

- ألم يستيقظ أبي بعد؟ -سأل بيليا.

- سأحمل إليه الماء الفاتر وأغسل قدميه الآن. -قالت الأمّ التي اعتادت ذلك الغسل كلَّ يوم تقريباً. وكانت تفعلها بمودّة، لا بل بما يشبه الفرض الدينيّ، ما دام الرجل يسعى لمصلحة العائلة.

ستصعد أمّي إلى الأعلى، وستعود روزا إلى الكنس -قال بيليا في نفسه- وسأنتهز الفرصة للفرار.

انتظر بعض الوقت وسمع خطوات والدته المتثاقلة تصعد السلالم، المجاورة لغرفته. فخرج حينذاك، قطع الممرّ خفيةً ودخل إلى المطبخ.

وسرعان ما تبدّت العمّة آنّيا أمامه كالشبح، حطّت عيناها المتيقّظتان على يده المنتفخة.

- ما الذي وقع ليدك؟

كانت لهجتها مبنيّة على التأنيب، كما لو أنّه تعمَّدَ إيذاء نفسه.

- لا شيء -قال وهو يخفي ظاهر يده بخاصرته، وحاول أن يخرج إلى الفِناء.

تبعته العجوز كأنّها الطيف.

- أرني يدك تلك يا بيليا. حذار فإنّها مصابة.

سمعتها الخادمة فأطلّت بوجهها المدبّب. قُضيَ الأمر. لا بدّ أن يستسلم للنساء. ومن جهة أخرى شعر بالارتياح لأنّه كان في العمق متوجّساً ممّا وقع له.

- ها هي يدي -قال مسلّماً أمره- أنا مستعدٌّ لرقصة التعويذات كما لو أنّي مُنيتُ بلدغة رتيلاء.

نشّفتِ العجوز يديها المتغضّنتين بمئزرها قبل أن تمسك يده. نظرت إليها، قلّبتها، أعادتها إلى وضعها، لمست بأنملة إصبعها آثارَ العضّة المحمرّة التي كانت على الجزء اللحميّ بجانب الإبهام، ثمّ ضغطت إصبعها هنا وهناك على الظاهر المتورّم الذي كان يلين مع الضغطة ويتصلّب من جديد.

- هل تؤلمك؟

- إطلاقاً!

- يدكَ مصابة. ابقَ في البيت يا بيليا، لا تُجهِدها، سنغسلها بالخلّ.

وعندما نزلت أمّه، حاملةً القصعة التي غسلت بها قدميْ زوجها، رأت أنّ العمّة آنّيا بدورها تغسل يد بيليا بالمنديل. وسرعان ما وضعت القصعة جانباً وانتابها الفزع، بينما كان ابنها ينظر نحوها بوجهه الضاحك ويقول:

- أهي المرّة الأولى التي تُغسَل فيها حوافري؟

التزم البيتَ إذن، لأنّه كان حائراً إلى أين يذهب أيضاً. فمع أنّه ذو طبع بهيج ومستهتر، لم يكن لديه أصدقاء، ولا يفكّر في الحبّ حينها، وليس لهُ تطلّعات أو ممارسات رذيلة، إنّما كان يهوى الدردشة والممازحة، لاسيّما مع النساء، وكان مغروراً بعض الشيء.

فبعد أن تُوفّي عمّه، امتلأ قلبه فرحاً بفكرة أنّه الوريث الوحيد لكلّ ممتلكات آل باركاي، لا لأنّه جشعٌ للمال أو راغبٌ في الحياة بلا مشقّة العمل، بل للحظوة التي سينالها في أعين الناس. لم يكن منشغلَ البال بأنّ الميراث غير متساوٍ، ولا يهمّه أن تُضمر خليلةُ عمّه وابنُها المزعوم الضغينة في حقّه. فهو من جهته لا يكره أحداً: لا يكره ولكنّه لا يحبّ أيضاً. كان في صميمه فجّاً وأنانيّاً.

تعجّبَ من أنّ والده كان أشدّ القلقين على ما حلَّ بيده. ها هو ينزل من غرفته في الطابق الأعلى، مرتدياً معطفه الأسود، من أجل الحِداد، وحاملاً مقصّ تقليم الأشجار.

أشرق وجهه كالعادة حينما رأى بيليا جالساً إلى المائدة يتناول الفطور، كأنّ شعاع شمس ينيره كلّما رأى ابنه، كأنّ عنفوان الشابّ ووسامته ينعكسان على وجهه العابس.

لكنّه سرعان ما انتبه إلى اليد المتورّمة، التي أصابت العمّة آنّيا بعدم

تضميدها. استعاد قناع وجهه القاتم، وأخذ يصيح على بيليا بدلاً من التهوين عليه.

- أنت تفعل ما يخطر في رأسك دائماً، كما لو أنّك بلا أب أو أمّ. لو أنّك لم تمتطِ تلك الدابّة الملعونة أمسِ لما وقع لك شيء. لو أنّك لم تتسرّع في التوجّه إلى ذلك المكان الملعون لما نزل بك هذا المكروه. إلّا أنّك تفعل ما يحلو لك من دون أن تهتمّ لِما يزعج والديك، أمّا نحن فإنّنا نخوض جهنمّ من أجلك إذا اقتضى الأمر.

تابع بيليا فطوره بهدوء، سوى أنّه خفض جفنيه لكي ينظر إلى يده، كما لو كان تأنيب أبيه موجَّهاً إلى تلك اليد وحدها.

وكانت اليد من جهتها تبدو كأنّها تسعى جاهدةً لخدمته بطريقةٍ سخيفة نوعاً ما، كأنّها نادمةٌ لكونها سبب الداء وموضع الخلاف.

- ليس لديّ التزامات بالرسم أو الكتابة، فلا ضرر إن بقيتُ بضعة أيّام على هذا الشكل -نطق أخيراً- أمّا عن الأكل، فأرى أنّـي آكـل بلا مصاعب. وإن لم تسارعوا في الجلوس إلى المائدة لن أبقيَ لكم شيئاً.

لكنّ والده لم يكن راغباً في الطعام. خرج إلى الفِناء وقال لروزا هامساً:

- انتبهي إذا مرّ الطبيب وناديه ليعاين يد بيليا.

الطبيب مقيمٌ على مقربة من بيت باركاي وكان يجيء ويغدو إلى مرضاه كلّ يوم.

نظرت روزا إلى سيّدها في عينيه، بعينيها الحادّتين كعين النمس، وقالت لهِ هامسةً كذلك، كما لو أنّهما يتفاهمان في أمرٍ لا يمكن الجهر به:

- أليس من الأفضل الذهاب لأخذ منديل أو حجاب من تلك المرأة لطرد البلوى؟

تأثّر زيبيديو للوهلة الأولى بكلماتها التي اتّسمت بنبرةٍ غامضة، وكاد يجيب بلى، فإذا به يغضب.

- اذهبي إلى الجحيم أنتِ ومعتقداتكِ، وتفقّدي مرور الطبيب بالأحرى.

ثمّ اقتنع هو نفسه بوجود جانبٍ شرّير في بليّة ابنه، وبقدرة ليا على إبطاله.

ينبغي أن يعود إلى ليا، لا أثناء النهار، لئلّا تراه أعينُ الناس، فإذا كانوا يرون خلال الليل ومن خلف الجدران، فتخيّل ألّا يروه في النهار على المكشوف.

وبالفعل، ما إن خرج لاحقاً حتّى أدرك أنّ الجميع بمن فيهم صعاليك الشوارع يتابعونه بنظراتهم. وكانت نظراتهم جميعاً، رجالاً ونساءً، تبدو له أشعّة قنديلٍ مسلَّطٍ عليه ليضيء حتّى روحه. يودّ الجميع أن يعرف بما يفكّر، وإلى أينَ يذهب، وما الذي ينوي فعله.

كان يستشيط في سرّه ويكيل اللعنات على جيرانه الفضوليّين: وفي الآن ذاته يحاول فطريّاً أن يتخفّى ويمشي بمحاذاة الجدران وتحت الظلّ، يخفض أنظاره رغم أنّه مرفوع الهامة.

*

وفي المقابل لم يكن ذاهباً إلى أيّ مكانٍ سرّيّ، كان ذاهباً إلى شأنٍ يخصّه، ذاهباً إلى الحدَّاد العجوز ليصلح مقصّ تقليم الأشجار.

كان الحدَّاد العجوز، وهو سنّانٌ ويُصلِح حدوات الخيل أيضاً، يسكن في مكانٍ غريب، في مخزن الألبسة الكهنوتيّة لكنيسةٍ صغيرةٍ وبائدة، على بُعد مئات الأمتار عن البلدة.

وكان قد ذهب إلى أمريكا هو أيضاً، قبل أعوام، طاعناً في السنّ حينها، وعاد محمّلاً بصرّة من النقود الذهبيّة، شبهَ ثريّ إذن. سُرِقت منه الصرّة في ليلة عودته نفسها، فعاش منذئذٍ في أنقاض الكنيسة وأطلال حياته.

لكنّه لم يكن يتكلّم عن مصيبته، إلّا إذا سُئِل عنها.

وكان في المحصّلة يعيش ميسور الحال كفايةً ممّا يتقاضاه، إذ إنّه تعلَّمَ مهناً مختلفة في أمريكا، وكان ماهراً في إصلاح الأدوات النابضة، وآلات الخياطة وحتّى مجوهرات النساء.

تهيمن طمأنينةٌ أبديّةٌ حول مسكنه: العشب ينمو بسيقانٍ عالية حول ما تبقّى من سور الكنيسة، وينبسط قبالته مرجٌ مفعمٌ بورود العنبر حتّى كأنّه يعكس زرقةَ السماءِ الكثيفةَ في شهر مايو.

تحت سقيفةٍ بدائيّةٍ بمثابة ورشة، يعمل العجوز القصير والمكتنز والأعرج، ذو الرأس الكبيرة الصلعاء التي بدا شعره قد انزلق عنها وتكثّفَ في لحية رماديّة طويلة، يعمل بصمتٍ أمام سندانه، وثمّة كومةٌ من الأدوات وخردة الحديد على الأرض.

لم يتحرّك حين رآه، ولم يتوقّف عن عمله، لكنّه بدا هو الآخر قد تخلّى عن حياديّته لينظر إلى الرجل بعين الفضول.

أخرج زيبيديو المقصّ من تحت معطفه وأعطاه له: لا يتطلّب عملاً جهيداً، سوى تغيير النابض المكسور، وبالإمكان إصلاحه في اللحظة نفسها، لكنّ الحدّاد وضع المقصّ جانباً رغم إلحاح الزبون وقال له:

- ينبغي انتظار الدور، بإمكانك العودة مساء غد لاستعادة المقصّ. أوه، اعلَمْ أنّني لا أتحمّل أيّ مسؤوليّة إن سُرِق.

كان زيبيديو على علم بذلك، فهذا الشرطُ يفرضه العجوز على كلّ زبائنه.

- يا عمّ ميكيلي -قال- سأترك المقصّ عندك في كلّ الأحوال، فإن سُرِق لن يكون الضرر مساوياً لما ألحقوه بك في تلك المرّة.

رفع العجوز رأسه، ونظر إليه متجهّماً، ثمّ عاد إلى عمله. لكنّ زيبيديو لم يذهب في حال سبيله، وبدا أنّه يستمتع في ذلك الصباح بتذكير الحدّاد بمأساته.

- يا عمّ ميكيلي، أما زلتَ لا تعرف شيئاً عمّا وقع لك؟

- لو كنتُ أعرف لما سألتَني. ففي هذا البلد، الجميع على دراية بكلّ شيء... حتّى القطط.

- ألم تلتزم العدالة بإجراء تحقيقات؟

- العدالة؟ فلتحترق بالنار. أعتقد أنّ رجال العدالة هم الذين سرقوا منّي الصرّة، إذ لم يلتزموا بالبحث عن الفاعل يوماً.

- لو كنتُ مكانك لما طاب لي عيش. كنتُ سأبحث عنه بنفسي، كنتُ سأبيع روحي للشيطان مقابل أن أعرف شيئاً ما.

- لقد بحثتُ، لقد بحثتُ: تكهّنتُ، وتوجّهتُ إلى العرّافات، ونذرتُ أدعية التاسوعة للقدّيس أنطون إن توصّلتُ إلى شيء. لديّ بعض الشكوك، أجل، ولكنْ ما نفعُها بلا أدلّة أو مساعدة؟ لم يبقَ لي سوى كيل اللعنات. آه، هذا هو حقّاً: إن رأيتَني أعمل بكلّ هدوء، فإنّني أكيل اللعنات في سرّي: تبّت يدك التي عرّتني، ويدك الأخرى كذلك، فلتتقطّع أوصالك كلّها، فليأكلك الدود حيّاً، فلتُنفقْ كلَّ النقود التي سرقتها منّي، ثمرة تعبي، على شراء الأدوية، فلتسقط عيناك، فلتتطاير أشلاء ابنتك وأبنائها إرباً إرباً، فليسحقهم الداء والسرطان أمامك وأنت عاجزٌ عن إغاثتهم.

- إيه، كفى -قال زيبيديو- لعناتك تكفي كلّ قتلة الأرض.

- لا، لا يكفي يا بنيّ. هذا هو عزائي الوحيد، فإن حرمتَني منه لكأنّك تسرقني مرّةً أخرى.

- الله لا يرضى عن اللّعن بهذه الطريقة.

- لو كان لا يرضى لما تركني عرضةً للسرقة أساساً. لا يرضى فحسب، بل أجزم أنّه هو الذي أنزل بي هذه اللّعنة، فإنّ اللّعنات تتساقط يا زيبيديو، تتساقط! سترى يوماً ما أنّ الجذام سيتفشّى على جسد سارقي، وسيأتي إليّ يطلب الصفح. لكنّي لن أصفح عنه، كلّا، لا هو ولا أمّه ولا بنيه.

كان زيبيديو يصغي إليه ببعض الاستهزاء، لكنّ شعوراً غامضاً بالهلع قد راوده: إذ ما زال يفكّر في لعنات ليا، ويد ابنه المتورّمة. وهكذا عاد أدراجه مشحوناً بالتوتّر حتّى أعماقه، وعرّج على الطرقات التي قد يلتقي فيها بالطبيب.

وكانت الطرقات هادئة، والبلدة كلُّها ممدّدة تحت الشمس ما بين المروج المزهرة تنعم بهناء ذلك الصباح الربيعيّ. كما أزهر القرنفل والبنفسج في الأُصُصِ المكسورة وأواني الفلّين المصفوفة على أَرفف النوافذ الصغيرة والأروقة الخشبيّة.

وكان الرجال في أشغالهم، والنسوة داخل المنازل يدبِّرن شؤونها أيضاً، إلّا بعض المُلَّاك الكبار يعقدون صفقاتهم أو يدردشون بتوافه الأمور قبالة دكّانة الخمور عند إحدى زوايا الميدان.

حتّى زيبيديو كان يتردّد إلى ذلك المكان ويصادق تلك الصحبة في الماضي، أمّا حينذاك فقد مضى بجانبهم متماسكاً يحيّيهم برأسه أو يكاد، ثمّ إنّه شعر ثانيةً بأنّه ملاحَقٌ من نظرة أولئك الرجال الذين بدوا له أعداءً على الرغم من أنّهم أصدقاؤه وأقاربه جميعاً.

وها هو من دون إرادته، مدفوعاً بقوّةٍ خفيّة، يجد نفسه أمام باب ليا: للطريق منعطفٌ إلى الميدان، وهو أكثر طرقات البلدة شعبيّةً وفقراً، غير مبلَّط، ويتكوّن من منازل رديئة وخفيضة تشبه الأوكار. وكان بيت ليا طابقيّاً، في أحد تلك الأبنية الوضيعة، مطليّاً بالأبيض، بابه جديدٌ وشرفته حديديّة.

وفي الشرفة الضيّقة طفلٌ هزيلٌ وأسمر بيده كتاب: عيناه اللوزيّتان والحلوتان سوداوان تتلألآن لرؤية العابر ومعرفته. والعابر يفطن إلى ذلك، تحزه تلك النظرة أكثر من الآخرين جميعاً.

إذ إنّه ابن بازيليو المسكين.

*

خرج الطبيب من أحد تلك المنازل المتردّية تحديداً، وكان طويل القامة بحيث اضطرّ إلى الانحناء ليمرّ من الباب.

وكان يرتدي قبل الأوان بنطلوناً صيفيّاً واسعاً من قماشةٍ خامّ لدرجة أنّه تشكَّلَ كالناقوس على قدميه الضخمتين، ويعتمر قبّعةً من قشّ على رأسه الكبيرة والسمراء وشعره المجعّد. حتّى لحيته مجعّدة. وكان أدعج العينين الثابتتين وأفطس الأنف، يذكِّر بالكبش، ورغم هذا كانت النساء معجباتٍ به إلى حدٍّ كبير، تنتابهنّ السعادة إذا مرضن لكي يأتي ويعاينهنّ بنفسه. وها هنَّ يقفن عند الأبواب والنوافذ ليسلِّمن عليه، فيردّ التحيّة بتلويحةٍ من يده كأنّه يباركهنّ، من دون أن ينظر إلى أيٍّ منهنّ، ويحطّ يده على رؤوس الأولاد في الشارع لتنحيتهم عن طريقه، بينما يصغي شارداً إلى قول زيبيديو الذي بلغه ومشى متماسكاً بجانبه، متماسكاً في الظاهر، ذليلاً ومتوسِّلاً في الباطن.

- هذا ما جرى لي -قال له هامساً- البارحة، عضَّ المهر ابني من يده، فتورّمت. ينبغي أن تأتي لتعاينه.

كان يحادثه برفع الكلفة لأنّه يعرفه مذ كانا صغيرين، ثمّ إنّه ابن أحد فلّاحيه المقاسمين في الماضي.

- هلّا أتيتَ فوراً يا أنطونينو؟ نحن على مقربة من البيت، لن تنشغل كثيراً، تلقي نظرة عليه وكفى.

- هل يده تؤلمه؟

- هو ينكر ذلك، لأنّه لا يريد إقلاق والدته، ولكنْ ربّما.

كان الطبيب يسير شارداً وسارح البال، وحين وصلا إلى منعطف الطريق توجّه إلى الشمال بدلاً من اليمين نحو بيت باركاي.

- ألن تأتي؟ -قال زيبيديو متوقّفاً، ثمّ لحقه من جديد لأنّه يعرف أنّ الإلحاح واجبٌ على هذا الطبيب ليلبّي النداء.

إنّك في المحصّلة حارس أغنام عجوز، قرويٌّ ومحدث نعمة لا يهمّك غير تكويم النقود، وقد تركتَ والدك يموت من العناء -كان زيبيديو يحادث نفسه.

- أنطونينو -ترجّاه ثانيةً- تعال حبّاً بالله. طمئن أمّه التي أضناها القلق.

- إنّي ملزمٌ بعيادتين طارئتين من قبل -صاح الطبيب عندئذ. وقد لفت صوته مزيداً من انتباه النساء اللواتي بتن ينظرن إليه وإلى زيبيديو بفضول.

فاضطرّ زيبيديو إلى السكوت مهاناً، لكنّه ما انفكّ يتبع الطبيب، وينتظره خارج باب المرضى.

ومن حسن حظّه أنّ آخِرَ العيادات لا تبعد عن داره، وأنّ الحالة استثنائيّةٌ تسلّى بها قليلاً.

كان الطبيب بإزاء امرأةٍ ميسورة الحال لكنّها مخبولة، وقد تعرّضت لنوبات اضطرابٍ هستيريّ، لأنّها دعت القدّيس أنطون شخصيّاً في الكنيسة لملاقاتها، وجاء رجلٌ لزيارتها في الليلة الماضية متنكّراً بزيّ قدّيس فعلاً. وبينما كانت تقدِّم له النبيذ والأشياء اللذيذة الأخرى التي أعدَّتها من أجله، انضمّ إليهما القدّيس بطرس ذو المفاتيح، ليطالب أنطون بإيضاحاتٍ عن كيفيّة خروجه من الفردوس الموصد من دون إذن. وبعد مشاجرةٍ تليق بالبشر أكثر ممّا تليق بالآلهة، انصرف القدّيسان حاملين معهما النبيذ والأشياء الأخرى، وتركا المرأةَ بين الحياة والموت.

وكان زيبيديو قد دخل إلى الفِناء مع الطبيب، ونظر عبْر النافذة المفتوحة إلى المرأة التعِسة ممدّدةً على أريكة. كانت تخبِط ساقيها وتحشرج بفمها المعوجّ والمتقع، وعيناها المنتفختان مغمضتان. تنحني اثنتان من جاراتها عليها لتثبيتها وإمدادها بكلماتٍ تطيّب خاطرها، لكنّهما تتبادلان نظرةً من حين إلى آخر وتزمّان الشفاه لئلّا تنفجرا من الضحك.

- اتركاها -أمرهما الطبيب، وأمسك معصمها وأخرج ساعته.

هدأت لمجرّد حضوره، فأنزلت قدميها إلى الأرض وجلست بوقار.

- اروي لي ما حدث. -قال بفظاظة ولامبالاة في آنٍ، وقد حنى رأسه قليلاً كما لو أنّه يصغي إلى نبضات معصمها.

- هذا ما حدث -باشرت إحداهما.

- دَعِي لها أن تتكلّم -صرخ الطبيب، لكنّه كان فاتراً ومتجرّداً حتّى في انفعاله.

بدأت المريضة بالكلام بصوتٍ خفيض ومهزوز كما لو أنّها تعترف. كانت لا تزال شابّةً بوجهها الأسمر حادّ التقاطيع وعينيها المتوهّجتين.

استند زيبيديو إلى رفّ النافذة الخارجيّ، يستمع إليها باهتمامٍ يضاهي به الطبيب.

- هذا ما حدث: أذهبُ كلّ مساء إلى الصلاة في الكنيسة، وأظلُّ حتّى ساعة متأخّرة، حيث لا يبقى أحد. وكان القدّيس أنطون يرنو إليّ بعينيه النجميّين، وبدا أنّه يحرّك شفتيه الذهبيّين ليقول لي شيئاً ما. أجل، كان يقول لي شيئاً ما، وكنتُ أدنو منه وأتحدّث إليه. إنّني امرأةٌ وحيدة، بلا صحبة، وأنا بليدة والجميع يسخر منّي. لا أحد يودّني. ولو لم يكن عندي ما يعينني على العيش لاضطررتُ إلى التسوّل، وربّما رشقني الناس بالحصى أيضاً. لكنّ الله والقدّيسين يحادثوننا، نحن البسطاء. والناس تحسدنا على ذلك. فقلتُ للقدّيس أنطون: «يا مولاي أنطون، لمَ لا تأتي لزيارتي؟» وبين صدٍّ وردّ وعدني بالمجيء ليلة أمس. وجاءَ حقّاً. بخفّةٍ جاء، بلا ضجّة. واستقبلتُه في بيتي الذي لا يليق بمقامه. وكنتُ قد أعددْتُ شيئاً ما، لا بدّ من ذلك، وتكرَّمَ بالرضا على قلبي الطيّب... وبعد... كلّا... لا يمكنني أن أروي ما حدث بعد... لا يمكنني... لا يمكنني...

وعادت ترتجف، ثبّتَها الطبيب بإحدى يديه الشديدتين.

- انظري في وجهي. -فرض عليها- تابعي.

عجزت المرأة حقّاً عن المتابعة، كان الأمر صعباً عليها، لكنّها أخذت تبكي بكاءً صبيانيّاً حارّاً رفع معنويّاتها.

تفاقم اضطراب زبيديو، لو شهد الحالة في السابق لضحك، إلّا أنّه في تلك الآونة وإذ كان الألم يصيبه هو أيضاً، وثمّة ظلٌّ لقوى غامضة تمشي بجانب ظلّه، كاد يميل إلى تصديق ما وقع للمرأة.

واستاءَ من الفظاظة التي يتحدّث بها الطبيب.

- اسمعي يا ريتا: هل سَرق منكِ هذان اللصّان نقوداً؟ لا؟ هذا أفضل. لكنّهما حملا الفطائر والفرّوج، تبّاً لهما! يبدو أنّ المجاعة اجتاحت

الجنّة أيضاً. اسمعي، سأعطيكِ دواءً مهدِّئاً، ولكن تذكّري جيّداً: من الضروريّ أن تخبريني بكلّ ما جرى، فهذا من شأن مفوّض الأمن العام أيضاً.

كانت المرأة تبكي.

- ما الذي بوسع المفوّض فعله بالقدّيسين؟ الذنب ذنبي وحدي، فأنا الذي حرّضتُ القدّيس أنطون على العصيان، لكنّ نيّتي كانت صادقة، إنّما أردتُ زيارته لمجرّد الصداقة.

- صفي لي وجه القدّيس اللصّ الذي انضمّ إليكما!

ارتعدت المرأة بمجرّد الإشارة إلى القدّيس اللصّ وزاغت عيناها.

- لا أدري، لا أدري، لم أره... لا يمكنني تذكُّره.

- أفلا تذكرين وجه القدّيس أنطون؟ كيف هو؟

- كان بوجهه الحقّ، الأملس والجميل، مثل الوردة. كيف تريد له أن يكون؟

- هناك الكثير من الأوغاد بوجهٍ أملس وجميل كالوردة. -لاحظ الطبيب وما زال يسترسل في استجوابه الفظّ الذي يجعله أقرب إلى القضاة منه إلى الأطبّاء. ثمّ أمر بالإتيان بجرعة مهدِّئ وقال للمرأتين ألّا تفارقا المخبولة.

وعندما وجد أنّ زيبيديو ينتظره في الفِناء بدا كأنّه لم يره قبل ذلك الحين: طلب منه أن يذكّره بالحالة، ووافق على الذهاب معه أخيراً.

وجدا بيليا يلهو في فِناء الدار، وقد أمسك بجناحي فرخ ديكٍ روميّ صغير يشبه الحمامة ووضع لاصقاً أحمر على ساقه. وكان ما حوله ينعم بالهدوء، كما لو أنّ الموت لم يمرّ بهم مؤخّراً، في حين أنّ الخادمة قد أعدّت

سخّانةً من سائل أسود تحت السقيفة لتصبغ به مناديل الحِداد. تضرّجت عندما رأت الطبيبَ، وحاولت أن تتخفى عنه، إذ كان يعجبها كثيراً، ثمّ تقدّمت نحوه شيئاً فشيئاً وحدَّقت إلى وجهه. كان يتفحّص يد بيليا بعناية فائقة، استعاد ألقه لأنّ الحالة تهمّه. فكّ زرّ كُمّ القميص وكشف عن ذراع الفتى البيضاء والمكتنزة. رفعها، جسَّها، وبدا أنّه ينظر إليها من خلال الضوء.

وكان الجميع ينظرون إليه بقلق وصمت، يربط بينهم خيطُ الفكرة نفسها. إلّا بيليا، يبتسم مستهزئاً تارةً، ومستغرباً طوراً، مسلِّماً يده المنتفخة للطبيب كما لو لم تكن يده. كان قلقاً في سرّه هو الآخر، ليس بسبب مصابه إنّما لهيئة الطبيب المربكة.

كما كان يزعجه أن يرويَ كيف وقعت الحادثة، إذ لم يكن يذكر الطريقة التي عضّته بها الدابّة الممسوسة.

- كان المهر يعدو أسرع من الكلب، فاضطررتُ إلى الانزلاق لكي أوقفه، وأنا ممسكٌ بالرسن. وهكذا عضّني، لكنّني لم أنتبه في حينها.

- وبعد ذلك رفض أن يضمّد يده -تدخّل أبوه.

- أسأتَ صنعاً يا بنيّ، لا شكّ أنّها التهبت قليلاً. هل لديكم معقِّم في البيت؟

لم يكن لديهم شيء، لكنّ العمّة آنّيا تفاخرت بقولها إنّها أجرت ليده غسول الخلّ.

لم يعبأ الطبيب بها، وهذا ما أزعجها.

إلّا أنّ زيبيديو كان مسروراً برؤية الطبيب يحمل الأمر محمل الجدّ، سوى أنّه بدا له فظّاً بمعاملة المرأة المخبولة، في حين كان هناك يتّسم بملامح الغموض. تُرى أنّ الموضوع خطيرٌ إلى هذه الدرجة؟

والحال أنّ الطبيب أراد أن يصحب بيليا معه ليعقّم يده جيّداً، ولم يتلفّظ بشيء آخر.

فرافقهما زيبيديو.

*

يقع بيت الطبيب في مساكن الفلّاحين الفقراء، وفي بيته باحةٌ صغيرة مسيّجة بسورٍ خفيض، وفي الغرفة الأرضيّة حيث يعاين المرضى ثمّة رفٌّ عليه كتبٌ مجلّدة، بجانب خزانة زجاجيّة، وطاولة واسعة يمدّد عليها زبائنه. هذا هو أثاث مهنته لا غير.

كان يتقاضى كثيراً من النقود، لأنّه لا يقتصر على معاينة الفقراء، بل يدفع له الأثرياء أيضاً، وكان مطلوباً في بلداتٍ أخرى للاستشارات أو العمليّات. فضلاً عن كونه ملّاكاً لأراضٍ ودوابّ، وكان رغم ذلك يعيش في مأساة ويزداد بالمال طمعاً.

وبينما كان يعقّم يدَ بيليا، كان الدجاج والكلب يطلّ بكلّ حرّيّة على عتبة الغرفة المؤدّية إلى الباحة، ويبدو أنّ حيواناته تراقب ما يجري في الداخل. وقد استمتع بيليا من جهته بالنظر إلى صغار القطط السود التي تقفز حول أمّها الفتيّة المستلقية تحت الشمس مانحةً إيّاها أثداءها البنفسجيّة.

فإذا بشابٍّ يدفع البوّابة بعنف مباغتٍ ويقتحم الغرفة.

- فليأتِ الطبيب فوراً -قال لاهثاً، وكان ينظر ما حوله بفضول- القسّ في وضع سيّء، تقيّأ كثيراً من دمه.

- أما زال يتقيّأ؟ -سأله الطبيب هازئاً.

- لا، لقد توقّف الآن.

- فاذهبْ إذن. سآتي بعد قليل. اخرج، وأغْلِق البوّابة.

كان الشابّ ينظر إلى يد بيليا ولا ينوي الانصراف.

دفعه زيبيديو نحو الباحة مستاءً، لأنّه لم يشأ أن يعرف أحدٌ بمصاب ابنه.

أصبح الطبيب مهذاراً على حين غرّة، وراح يغتاب القسّ.

- عسى أنّه قرّر أن يموت هذه المرّة. فلطالما رأيتُه متشبّثاً بصندوق الكنيسة مثلما يتعلّق الغريق بخشبة. يريد استرداد ما تقيّأ من دماء، بالمال الذي يمتصّه من الفقراء. ثمّ يا ليته يؤدّي واجبه: عندما يبحثون عنه من أجل الوظائف المقدّسة يجدونه مريضاً، وعندما يتعلّق الأمر بالإيرادات يكون في أحسن حال.

- لعلّه يحتاج إلى المال. -قال بيليا.

- أيُّ حاجةٍ هذه! إنّه وحيد، لا أمّ له ولا أب ولا حتّى أقارب، بل إنّ أمواله فائضةٌ عليه. قلت له مئة مرّة: استقل، اذهب إلى شاطئ البحر، استجمّ. «آه، ومَن سينتفع من الإيرادات؟» فمُتْ إذن. صدّقني يا بنيّ إنّ المال جَرَب الدنيا.

«اسمعوا مَن يتكلّم!» قال زيبيديو في سرّه، بينما كان بيليا يقول ضاحكاً:

- بالنسبة إليّ، أُنفق ما لديّ. المصيبة أنّه ليس لديّ.

- ستحصل على المال يوماً ما، وسيكون لديك من المال كثيرٌ، ونأمل أن تنعم به.

كان زيبيديو يشعر برغبةٍ في التلويح بإشارةٍ بذيئة بيده، لكنّه كان في قرارة نفسه راضياً أنّ الطبيب يعالج بيليا على أكمل وجه. فليكن بيليا سعِيداً، ولا بأس بما تبقّى.

وضع يده على ياقة معطفه لإخراج المحفظة. كان سعيداً في تلك اللحظة حتّى إنّه ليدفعنَّ مئة ليرة للطبيب لو طلب.

- كم تريد على أتعابك يا أنطونينو؟

كان الطبيب يرتّب أدواته، لم يردّ.

- أنطونينو...

- اذهب، ثمّة وقت! -صاح أخيراً بأسلوبٍ سيّئ.

«ثمّة وقت، هذا يعني أنّ المرض سيستمرّ» فكّر زيبيديو متجهّماً وهو ينصرف رفقة ابنه.

*

وربّما ما كان للمرض أن يستمرّ من دون حادثٍ وقع في بيت باركاي أثناء ذلك.

كانت الخادمة قد أوقدت النار تحت السقيفة، مثلما اعتادت دوماً كلّما وجب عليها إحماء السخّانة. لكنّ النار في تلك المرّة انتقلت إلى كومةٍ من الأغصان متكدّسةٍ هناك في الجوار عن غير وعي. شبّت ألسنة اللهب عاليةً وغاضبة وتوعّدت بإحراق السقف والإسطبل المتاخم.

وكان الناس يتراكضون من كلّ جهة، حين خرج بيليا وأبوه من باحة الطبيب. وسرعان ما تكهّن زيبيديو بوقوع المصيبة، إذ رأى غيمة دخان تتصاعد من داره. هبَّ راكضاً وأخذ يصيح عندما بدا له الباب المخلوع مثل فوّهة فرن. كانت النيران تنبجس من تحت الأرض وتثور وتتطاير بأجنحة حمراء عملاقة.

ومن خلال الدخان الخانق الذي ملأ الفِناء، تبدّت أطيافٌ سوداء تهرع من هنا وهناك محمّلة بدلاء الماء.

- انقلبت داري إلى جحيم! -صاح خارجاً عن طوره، ونزع قبّعته ولوّح بها كأنّه يحاول إطفاء النار.

نسي كلّ شيء. ركض إلى البئر حيث كانت السيّدة وروزا مضرَّجتين تتصبّبان عرقاً ترفعان الماء وتسكبانه في الدلاء، فحمل دلويْنِ، ولم يفعل شيئاً خلال دقائق سوى أنّه ركض من السقيفة إلى البئر ومن البئر إلى السقيفة ليرشق الماء على الحريق. وفعل الآخرون مثله تماماً، رجالاً نساءً: حمل الجيران المياه من آبارهم، وكان الأولاد يساعدونهم، وبدا أنّ الجميع مستمتعون. لكنّ الحريق مستمرّ، وحتّى ألسنة اللهب بدت تتحلّى ببعض المرح، تذكيها بصقات الماء بدلاً من أن تخمدها.

الخيول تصهل وتقعقع في الإسطبل، حيث كانت إحدى دعامات السقف تتفحّم ثمّ تشتعل مثل السيجار.

انتبه زيبيديو الذي أعماه الدخان والغمّ أنّ بيليا يستند إلى سلّمٍ في الخارج ويحرّك قرميد السطح.

- افسحوا المجال -صاح- سأقلب الدعامة الآن وأرميها إلى الأسفل.

تنحّى الجميع، والدلاء بأيديهم، ينظرون إلى الأعلى. سُمِعَ صوت ارتطام بعد قليل، واندمجت غيمة غبار بغيمة الدخان، وسقط السقف مختنقاً بالنار وحطامه.

تهدّمت السقيفة أيضاً، في حين كُتِبَتِ النجاة للدّار والإسطبل.

*

وما إن زال الخطر حتّى توالت الاتّهامات.

- كلّه بسببكِ -صاح السيّد بِروزا- مَن سيدفع كلّ هذه الأضرار الآن؟

كانت الفتاة مرميّةً على الأرض، شبهَ ميّتة من شدّة الإرهاق والهلع، تُمعن أنظارها بكفّيها اللتين تسلَّختا من حبل الدلو لاغتراف الماء وتُجهش باكيةً.

- كلّه بسببي أنا -قالت أخيراً- حسناً، افعل ما تشاء يا سيّدي: اطردوني أو أرغموني على الخدمة مجّاناً حتّى سداد تكاليف الأضرار.

لم يهدّئ هذا الرضوخ من روع زيبيديو، لأنّه لم يكن منشغل البال بالأضرار، إنّما كان يهجس بيَدِ بيليا التي انفكّ ضمادها وانتفخت أكثر من ذي قبل واتّخذت لوناً داكناً كأنّها اسودّت بفعل الدخان.

فكّر في أن ينادي الطبيب مرّة أخرى على الفور، لكنّه لم يجرؤ. فقال له بيليا إنّه سيذهب إليه بنفسه لتضميد يده ثانيةً، عسى أن يطمئنّ. وكان يخرج حينما وصل الطبيب شخصيّاً. بلغه نبأ الحريق وجهود الفتى فأنَّبه بحدّة، الأمر الذي أسعد زيبيديو كثيراً.

نال الضجرُ من بيليا.

- لا تصدّعوا رأسي هكذا -قال حالَما انصرف الطبيب- وإلّا اختبأتُ فلا تروني طيلة أسبوع كامل.

- اختبئ كما تشاء، شرط أن تحافظ على سلامة يدك.

ذهب بيليا إلى سريره الصغير في الغرفة الأرضيّة، ونام قرير العين. دخلت أمّه على رؤوس أصابعها وأغلقت النافذة، والتزم الجميع الصمت كي لا يقلقوا نومه مثلما عندما كان طفلاً.

*

انشغل زيبيديو كثيراً في تفريغ السقيفة وإعادة إصلاحها في الأيّام التالية، وكان أحدُ خدم المرحوم بازيليو يساعد عمّال البناء، وكذلك انضمّت إليهم روزا التي ما زالت مشدوهةً رغم أنّها شربت من ماء الفزع الذي أعدَّته العرّافة.

لم يُسمَح لبيليا بالاقتراب إطلاقاً: إذ إنّ روزا نفسها، التي لطالما أفرطت في عواطفها، كانت تُنبّه سيّدها كلّما تهيّأ الفتى لصنع شيء ما.

وكان بيليا يهزّ كتفيْهِ ويجلس بجانب باب المطبخ، ويده مرفوعة بضمادٍ مربوطٍ بعنقه، حزيناً، مهموماً، لا لمرضه، إنّما للجمود الذي فُرِضَ عليه. وكانت أمّه أو العمّة آنّيا، بين الفينة والأخرى، تغيّر الكمادات على يده التي بدأت تتقيّح، فلا يعترض على ما تفعل، متكاسلاً يَلوح تعبيرٌ عن اللامبالاة في عينيه المتألّقتين، وبدا أنّ جفنيه يذبلان مثل بَتلاتِ الغاردينيا. وامْتقعَ لون فمه وتيبّس، ونمت قشرةٌ طفيفة على شفته ووجنتيه لم يشأ إزالتها، لا بل كلّما أعطته أمّه نقوداً ليذهب إلى الحلّاق قال بامتعاض:

- لا أريد. أريد أن أطلق لحيتي ما حييتُ.

كان الطبيب هو الشخص الوحيد الذي ينجح في تشجيعه وطمأنته رغم أنّه لم يوضّح قطّ طبيعة الداء ومدّته.

ها هو يدخل بعد أن يضرب بعكّازته بشدّة على باب الدار المفتوح إيذاناً بمجيئه، فتفعل الخادمة ما بوسعها لتقترب منه، تنظر إلى كتفيه، إلى عنقه، تحمرّ خجلاً، تنتصب قامتها ويتمايل خصرها فطريّاً لجذب انتباهه.

يُقبِل نحوه زيبيديو والمرأتان أيضاً، وبينما تنظر إليه الأمّ بأملٍ وإيمانٍ تراقبه العمّة آنّيا بريبةٍ وبرود ولا تبادر لتوجيه الكلام إليه أبداً. ينزعج بيليا من تجمُّع الأشخاص حوله، فيسلِّم يده للطبيب يفحصها بعجالة، ويشعر بمتعةٍ جلفة إذا تردَّت حال يده.

قال بفتور ذات يوم:

- ينبغي أن تُقطَعَ إذا أصابتها الغرغرينا.

- أنت مجنون. -صاح والده- لماذا تخطر في بالك هذه الترّهات؟

- أنا لا أخشى شيئاً، لديَّ ما يكفيني قوت يومي.

وعاد إلى الجلوس بجانب باب المطبخ، يركل الدجاج والقطط التي تحاول المرور أمامه.

حتّى لادروني كلب الحراسة الوفيّ الذي كان صديقه منذ أعوام طويلة أخفق في كسب ودّه بعدُ. وكم حام حوله يهزّ ذنبه، وينظر إليه بعينيه الحلوتين واللامعتين ولكن عبثاً، وعبثاً يحاول أن يَلعقَ يده السليمة، فكان يبعده بقدمه، يريد أن يبقى وحيداً صحبة مرضه وهاجسه السرّيّ: هاجسٌ لا يشاء البوح به كلّيّاً حتّى لنفسه.

فخيَّمَ القيظُ الخانق والغمُّ الثقيل على الدار التي كانت هانئة فيما مضى. بل إنّ طيف العمّة آنّيا نفسه كان يُدخِلُ إلى البيت إحساساً غريباً، غامضاً؛ كأنّما تقمّصت ظلَّ المتوفّى الطويل ليذكّر بما جرى من جورٍ هناك، وبأنّ الله شاء أن يعاقب العائلة الطمّاعة بإنزال البلاء بابنهم، فضلاً عن المصائب المتتالية: أعقبت سقوطَ السقيفةِ أهوالٌ أخرى: تفشّت القرحة المعويّة بين مواشي المرحوم بازيليو، ونفقت على إثرها بقرتان، ثمّ سُرِقَت واحدة.

*

ذات مساء، قرّر زيبيديو العودة إلى ليا. كانت متغيّبة، لا بل بحسب ما تناقلته نسوة الديرة كانت منعزلةً تشتغل في بيتها لا تودّ استقبال أحد. إلّا أنّ زيبيديو لم يكن مطمئنّاً لهذا الهدوء الظاهريّ.

وفي تلك المرّة وجد الولد أيضاً بجانب أمّه التي كانت تَخِيط، كلاهما جالسٌ على كرسيٍّ صغير، إلى الطاولة، تحت ضوء قنديل الزيت مباشرةً. وكان شعر سالفاتوري ذو الانعكاس الذهبيّ متبايناً مع كتلة رأس ليا الأغبش والملفَّع بمنديلٍ أسود.

لم يفكّر زيبيديو أنّه سيلتقي بالولد، فأربكه حضوره: عيناه اللامعتان والماكرتان، الحلوتان والذكيّتان، كانتا تَلِجان إلى عميق روحه.

وكان من جهةٍ أخرى يفكّر أنّ ما سيقوله للأمّ سيسمعه الابن، فإن وَلجت العينان إلى أعماق عذابه وتعاطفتا معه فهذا جيّد. أمّا إذا تشفَّيتا بحاله فذلك أفضل: لقد كان آتياً إلى هناك لينكأ جرحه بحثاً عن الألم ومِن ثَمَّ المؤاساة.

ورغم هذا اتّخذ نبرةً ممازحةً في حديثه مع الولد.

- أما زلتَ تدرس، حتّى هذه الساعة؟ دع هذا الكتاب ينام، ألا ترى أنّه متعبٌ من كثرة ما قُرِئ منه؟ واذهب أنت إلى اللّعب مع الأولاد في الخارج.

- ابني سالڤاتوري لا يخرج في المساء أبداً -قالت أمّه جادّةً وهي تنهض لتقرِّب كرسيّاً إلى زيبيديو- اجلس.

- لا يخرج لأنّه يطيعكِ، لكنّ الأولاد عليهم أن يخالفوا الأوامر دائماً.

- هل كنتَ تقول ذلك لابنك بيليا؟

- لم أَقُله ولكنْ كنتُ أفكّر فيه. إنّ الأولاد الذين يطيعون الكلام ليسوا أصحّاء. هل تعرف ما يكونون يا سالڤاتوري؟

كان الولد ينظر إليه بعينين لامعتين، حتّى إنّ زيبيديو لم يميّز ما إذا كانت النظرة تحوي عداءً أم مودّة، استهانةً أم لؤماً. لكنّه أسعِدَ برؤيته يضحك وهو يقول له:

- ليسوا أولاداً، بل بنات.

تصوّرتْ ليا أنّ الرجل يريد التحدّث معها على انفراد، لذا أشارت إلى الولد بالخروج.

- اذهب إلى النوم يا سالڤاتوري.

فما كان من زيبيديو إلّا أن رجاها الإبقاءَ عليه، فخفض الولد عينيه إلى الكتاب، وراح يقرأ لكنّه لا يقلب الصفحة أبداً. وتابعت ليا الخياطة،

وكان زيبيديو يرى يديها وظِلّ يديها على القماشة وكيف تندسّ الإبرة وظِلّ الإبرة في القماشة بحركةٍ مبهمة، وكان يخشى أنّ المرأة في سرّها تكيل اللعنات عليه.

- كففتُ عن المجيء يا ليا، لأنّ البلايا انهالت عليّ كحبّات البَرَد في هذه الأيّام الأخيرة. المصائب لا تأتي فرادى. ولعلّكِ عرفتِ بخبر الحريق.

احتدّتْ تقاسيم وجهها بابتسامةٍ هازئة.

- ما كلفة سقيفةٍ بالنسبة إليك، يا سيّد زيبيديو باركاي؟ إن كنتَ تشتكي من ذلك! أم إنّك أتيتَ إليّ لتَسْتدينَ منّي مئة سكودة لإصلاحها؟

«اسخري منّي -فكّر زيبيديو- إن كان هذا يروقكِ ويخفّف من حقدكِ، فاسخري منّي».

- كذلك أصاب المرض الماشية عندي، حتّى ابني بيليا أصيبت يده. (هل هي على علم أم إنّها تتظاهر بعدم معرفتها؟ ها هي تحني رأسها وتخفي تعابيره. هل يجب أن أخبرها بكلّ شيء؟ أجل). عضّه مُهرُ المرحوم بازيليو، ويبدو أنّ يده التهبت قليلاً. سيجري له الطبيب عمليّة في الغد لطرح القيح.

- الطبيب؟ فليُصْلَ ناراً. هل تستشير الطبيب؟ إنّه يبضع لحمَ المستضعَفين أحياءً ليستخرجَ منه المال. لو أنّي أصبتُ بداءِ عضالٍ لما سمحتُ له بأن يمسّني.

«تريدين إفزاعي لكي تتأخّر العمليّة ويصاب ولدي بالغرغرينا» فكّر زيبيديو بذلك مع أنّ المرأة بدت له صادقةً كما إنَّ كلامها هيّج في خاطره إحساساً بالتشكّك تجاه الطبيب.

- لا تسمح له أن يمسّ يدَ ولدِك. دع المرض ينتهِ من تلقاء نفسه، ثمّ يكفي أن تخزّها زوجتك بإبرة فينتهي كلّ شيء على ما يرام. رأس الإبرة يكفي. ألا تذكر (وخزت القماشةَ لتبيِّن كيف ينبغي له فعلها) ألا تذكر عندما أصيب بازيليو المسكين بخُراجٍ في رقبته؟ حينها اقترح الطبيب عمليّة، يريد إعمال مشرطه دوماً، هذا السفّاح. لكنّ بازيليو عمل بمشورتي. واكتفى بوخزة إبرة فشُفِيَ.

- وماذا تظنّين أنّ الطبيب يفعل؟ ما المبضع إلّا إبرة كبيرة.

- أحياناً... -قالت بصوتٍ هامس- أحياناً يعمد الأطبّاء إلى تسميم المبضع ليضمنوا استمرار المرض فيكسبوا مبلغاً طائلاً فيما بعد.

- ليا! لا يجدر بامرأة عاقلة مثلكِ أن تتفوّه بهذه الأشياء.

- لماذا؟ هل الأطبّاء ملائكة؟ إنّهم بشر، يعبدون المال، ومن أجله يجرؤون على فعل أيّ شيء هم أيضاً.

ارتبك زيبيديو عند سماعه عبارة «هم أيضاً»: هل تلمِّح إليه؟ أجل هي كذلك.

- أَتَسمع ما تتفوّه به أمّك يا سالفاتوري؟ لحسن الحظّ أنّك لا تصدّق هذه الأشياء.

رفع الولد بصره عن الكتاب لكنّه لم يردّ: هل يصدِّق أم لا؟

- تسيئين صنعاً يا ليا بإقناع ابنكِ ببعض الأمور. -قال الرجل مخفضاً صوته هو الآخَر.

- أيُّ أمور؟ أنَّ هناك بشراً بلا ضمير؟ سيتعلّم ذلك بنفسه مع الأسف. حسبي أن يبقى طيّباً، وألّا يسكن الشرُّ سريرته.

- اسمعي يا ليا -استأنف زيبيديو- أنا لا أعتقد أنّ الشرّ موجود في الدنيا بهذا الحجم. نحن مَن يتوهّم ذلك، ونظنّ أنّ الآخرين

قادرون على إلحاق البليّة بنا، لكنّه وهمٌ من صنع مخيّلتنا. وهذا أسوأ من أن نكون أشراراً.

كان يتحدّث هكذا لكي يَسمعُه الولد. لم يعرف سبب شعوره آنذاك بأنّ أكبر مخاوفه تتمثّل في أن يحسَبه سالفاتوري مذنباً.

- وحتّى لو لمسنا الشرَّ بأصابعنا، ينبغي دوماً أن نعتبره أصغر ممّا هو عليه. ولا ينبغي الحديث عنه للأولاد. سيختبرونه، هذا صحيح، ولكنّ الحياة كلّها أمامهم. فلندعهم يستمتعون ما استطاعوا. أنا لم أقل في حياتي لابني: فلانٌ مؤذٍ وفلانٌ شرّير. وهذا ما جعله يكبر طيّباً، عمره ستّة عشر عاماً ولا يزال طفلاً.

- ابنك وُلِدَ في سرير الورود وحظي بعناية الحظّ السعيد، هذا ما يجعله طفلاً حتّى الآن، وسيظلّ طفلاً، أمّا الآخرون فيُولدون حاملين زهرة الضرّاء بأيديهم، وتجلدهم خبرة الحياة قبل نموّ أسنانهم. هلّا كففنا عن الحديث في هذا! - ختمت كلامها وقطّبت حاجبيْهَا. فغيّر زيبيديو الموضوع: روى عن المرأة التي استقبلت القدّيس أنطون، والطرائف التي أضحكت سالفاتوري. إلّا أنّه استغرب كيف لا ينطق الطفل بكلمةٍ واحدة.

- أليس لديك لسان! -سأله وكاد ينزعج من ذلك السكوت- ألا يعلّمك الأستاذ أن تتكلّم؟

- الأستاذ يعلّمني أن أسكت -ردّ الولد، وكان جادّاً في كلامه، مع أنّ زيبيديو ظنَّ أنَّ المشاكس يسخر منه.

- ما أروع هذا الأستاذ! هل يريد أن يستأثر بحقّ الكلام لنفسه؟ قُلْ له من طرفي إنّه يتحدّث نيابة عن ثلاثة، بل ثلاثين، إن كان يعلّمكم السكوت أنتم الثلاثين تلميذاً! وإن امتثلتم لأمره ستصبحون

أغبياء جميعاً. سكوت! الناس ينقضّون على الرجل الذي لا يجيد الكلام مثلما ينهال الذباب على حمارٍ مقطوع الذيل... وإن اتُّهِمَ بتهمة وأخفق في الدفاع عن نفسه يمزّقونه أشلاء، مثلما يفجّرون الصخورَ باللغم.

- إن امتنع عن ارتكاب الشرّ لن يتّهمه أحدٌ بشيء. -قال سالڤاتوري.

ردًّ عليه، وراح يسترسل في الحديث، كما لو أنّه جاء خصوصاً لهذا، ليناقش الولد. وكانت الأمّ تنظر إلى ابنها بإعجاب، ويبدو لها مثل المسيح في سنّ الصبا يحاجج أطبّاء الهيكل المتعنّتين.

*

لا شكّ أنّ سالڤاتوري ذكيّ، إذ كان في ربيعه العاشر ويشعر بتفوّقه على زيبيديو وينظر إليه بإشفاق. لكنّه في العمق يشعر برعبٍ مبهم منه لأنّه يعتقد أنّه مذنب. لم يكن يكرهه، ولا يحسِب الضرر الماديَّ الذي كان يقع عليه، بل كان مشبعاً بثقةٍ سامية بقيمته، بِكونه ولداً مثابراً وسيشقّ طريقه بنفسه. لكنّ الرجل العابس ذا الشكل الشيطانيّ يمثّل بالنسبة إليه لغزاً يملأ أعماقه حزناً على كينونته، وقوّةً لا يمكن إلّا لله أن يردعها: هذا الرجل يمثِّل الشرّ.

ومع ذلك، بسماع حديثه وطريقته في الكلام، كان يميل إلى تصديق أنّه بريء. كلّا، لم يمزّق الوصيّة، كما تزعم أمّه. وكانت هذه الفكرة، إضافةً إلى تأكيدات زيبيديو بعدم وجود هذا القدْر من الشرّ في الدنيا، تبعث في قِلبه شعوراً بالفرح.

لكنّ الأمّ كانت متيقّظة، تشعر بما يخامر روح ابنها، وترمي من حين إلى آخر كلمةً في النقاش تُبطل مفعول كلمات زيبيديو. لم تلمّح إلى الميراث

إطلاقاً، وتجنّبت ذِكر اسم بازيليو حتّى بدت أنّها لم تعد تذكره. لكنّ الرجل ليس غافلاً، كان يشعر بحضور بازيليو هناك على الدوام، يتكلّم عبْر صوتها.

*

- هل تعلم أنّ بييترو باولو راسلني؟ - قالت على حين غرّة.

بييترو باولو زوجها.

- رسالةٌ غريبة. سأتركك تقرأها الآن. أين وضعتَها يا سالفاتوري؟

بحث الولد عن الرسالة في دُرج الطاولة، وبينما كان زيبيديو يقرأها تنحّى جانباً واستطاع أن يقرأ في كتابه بالفعل.

طغى صمتٌ مطبق للحظاتٍ على المطبخ النظيف والمرتّب كأنّه صالة لاستقبال الضيوف. وبدا الثلاثةُ أنّهم عائلة واحدة، مجتمعة وهانئة حول النور المنزليّ.

كانت رسالة بييترو باولو طويلة، مكتوبةً على إحدى الأوراق الكبيرة المخطّطة بالمربّعات، التي كان التجّار يستخدمونها في الماضي. كان يقول إنّه عَلم بوفاة بازيليو، وبدلاً من أن يشمت كان يعزّي ليا.

«أعرف أيضاً أنّه لم يترك لكِ شيئاً، وهذا ما يثير عجبي. لكنّ كلَّ شيء ممكنٌ في هذه الدنيا. إنّ ما يصعب تصديقه هو الذي عادةً ما يقع بالفعل. فمَن كان ليتنبّأ على سبيل المثال بأنّي سأنتهي على هذه الحال، وأنّي سأستسلم لكلّ مصائبي؟

إنّ الله يمدّنا بالحياة، وهو الذي يُنزِل علينا المصائب، لكنّه يعيننا عليها دوماً. وهكذا فإنّ أشغالي بفضل الله تجري على خير ما يرام: وسَّعتُ دكّاني، وأتيتُ بموظّفين اثنين، والطلبيّات تتزايد يوماً بعد يوم. عليَّ أن أعترف أنّ

الزمن كذلك ساعدني، كان لديّ كثيرٌ من البضائع في المستودع، ثمّ ارتفع سعر الحديد الآن ليضاهي الذهب. لذا، أردتُ أن أقول لكِ التالي يا ليا: فلندفن الماضي، واعذريني إن كتبتُ إليكِ في بعض الأحيان بتلك الطريقة، فإنّي كنتُ ضحيّة الضغينة والهوى. فعلى الرغم من أجوري الطائلة، أعيش حياةً تعيسة، على كرسيٍّ متحرّك، تقتادني خادمةٌ كما لو أنّني طفل. والآن، تريد هذه المرأة أن تتركني، مع أنّها تتصرّف كسيّدةٍ في بيتي، واستطاعت ادّخار نقودٍ كثيرة. لكنّها وجدت زوجاً أصغر منها سنّاً سيسلبها كلّ ما تملك. معلوم، هي الحياة هكذا: السمك الكبير يلتهم الصغير.

إنّني في حاجةٍ إلى امرأةٍ تساعدني في البيت، كما إنَّني تعبتُ من كوني وحيداً، لا أحبّ أحداً. ولطالما فكّرتُ بابنكِ، وما زلتُ أفكّر: لو أنّ الله رزقنا بهذا الولد قبل أن أسافر لما وصلنا إلى ما نحن عليه وما كانت ليا لتخونني.

كفى كلاماً. الحال كما يلي: إن أردتِ أن تعودي إليّ فلن ألمِّح للماضي أبداً. ففي هذه البلدة يعمل الجميع، ولا أحد ينشغل بما يفعل الآخرون.

لا أحد سيستغرب أنّنا نرتبط من جديد، لا بل إنّ الجميع ينصحني بذلك: سيجد ابنكِ سالقاتوري فيَّ أباً حقيقياً. يَرِدُني أنّه مثابر، سنجعله يكمل دراسته. فكّري في الأمر جيّداً يا ليا، أعتقد أنّ صحّتي ستتحسّن إن عدتِ أنتِ إلى بيتي، وأغدقتِني بعنايتكِ، وأرجعتِ السلام والرخاء إلى قلبي. وحتّى إن مُتُّ بعد مدّة قصيرة، فسيكون مصيركِ مضموناً بكلّ الأحوال، لأنّي سأترك باسمكِ كلّ ما أملك. ردّي عليَّ وثقي بي دائماً.

زوجكِ المحبّ

بييترو باولو»

«ملحوظة: أودّ الإتيان بالعجوز ميكيلي پالا إلى هنا هو أيضاً، ذاك الذي علّمني المهنة. سأجعله يتقاضى أجوراً كبيرةً، بالاعتماد على قدراته. كتبتُ إليه، ولكنْ أرجوكِ أن تذهبي إليه وتتوسّلي منه أن يبلّغني ردّه على رسالتي».

كان زيبيديو في أثناء قراءته يراوده إحساسٌ بالارتياح. ليت ليا تعود وتنجلي عن البلدة فينجلي ضميره! لكنّه حالما انتبه إلى اللامبالاة التي استعادت بها الرسالة منه ووضعتها على الطاولة، ولاسيّما أنّه شاهد ضحكة ازدراء طفيفة تتلوّى في فمها، شعر أنّها تفكّر بطريقةٍ مغايرة كلّيّاً. وبما أنّها لم تخمّن ما يجول في ذهنه من خواطر، اتّخذ هو الآخر تعبيراً هازئاً.

- نيّتُه حسنة، هذا الشهمُ النبيل!
- نيّته حسنة، أجل، لكنّه حقيرٌ بما تبقّى من شخصيّته! يريدني أن أجرّ عربته بعد أن تخلّت عنه خادمته. لكنّي سأجرّ نعشه، إن أراد، لا عربته.
- على أنّ لديه أموالاً كثيرة -ارتجل زيبيديو- ومَن كان مثله شبه مشلول مات باكراً.

رمته المرأة من أسفل إلى أعلى بنظرةٍ لفحت كاللّهيب على وجهه.

- لم أعبأ بأموال مَن كان يحبّني، فهيهات أن أعبأ بأموال مَن يكرهني! -قالت، ثمّ ألمحت بعينيها نحو سالڤاتوري- هذا هو ميراثي الوحيد، ولن يجرأ أيُّ لصٍّ على انتزاعه منّي.

شعر زيبيديو برغبةٍ في التأفّف وطرق الأرض بقدميه. لماذا لا ينصرف؟ ما الذي جاء به إلى هناك؟ ما الذي جاء به إلى هناك؟ أجل، تذكّر بغتةً: جاء

ليعرض المال على المرأة لإعانتها على الحياة؛ كما إنَّه كان مدفوعاً بالحاجة إلى عونٍ يجعله يتجاوز عذابه السرّي.

والعون هو أن يتألّم، ليهوّن من غلواء المرأة ويرضي ضميره تحديداً. فمضى في مقارعة أحقادها، يستثيرها ويتوقّاها مثلما حين يُخرِج النحلَ من الخليّة.

- يبدو لي أنّ زوجكِ منقادٌ بنيّة حسنة. أتحدّث في مصلحتكِ يا ليا، ومصلحة الولد. إنّه يكتب بكلّ وضوح، (استرجع الرسالة وقرأ): «وحتّى إن متُّ بعد مدّة قصيرة، فسيكون مصيركِ مضموناً بكلّ الأحوال، لأنّي سأترك باسمكِ كلّ ما أملك». الأمر متوقّفٌ على التأكُّد من أنّ دكّانته الشهيرة مجهّزةٌ ورابحة كما يدّعي. ولا بدّ أنّكِ في التالي ستفعلين كما ينبغي وأن تكتبي له: أجل أنا موافقة للمجيء، شرط أن تضمن لي عهودك بشكلٍ جدّيّ.

لم يَرِده جوابٌ من ليا، لم تعد ترفع عينيها، وكأنّها لا تسمعه. وكان الولد يقرأ حينذاك، فأحسّ زيبيديو أنّه معزولٌ عنهما.

- أفهم أنّكِ شابّة -استأنف بإلحاحٍ أثار استغرابه نفسه- ليس من المفرح أن ترتبطي برجلٍ شبه ميّت، لكنّ الفوائد التي ستجنينها كثيرة، ناهيك باحتمال عودة روحه إلى بارئها سريعاً.

- إن لم يفكّر بنفسه في إعادة روحه إلى بارئها سريعاً، فسأهتمّ أنا بالأمر -قالت هامسةً بنبرة حقدٍ دفين- عليه أن يكفّ عن تعذيبي! أنا لا أبحث عنه، ولم أعد أبحث عنه منذ أمدٍ بعيد. إن كان يريد أن يقتلني فقد كان عليه أن يفعلها في آنها. وإن كان عاجزاً فكان بوسعه إيفاد قاتلٍ مأجور. وطالما أنّه تركني في السابق أعيش، فعليه الآن أن يتركني أعيش. لقد كتب إليّ ألف مرّة بأنّه أقسَمَ بالمسيح، بينما يبارك الراهب كأس القدّاس، أنّه

سيقتلني. فمَن يضمن لي الآن أنّ هذه ليست تمثيليّة ليغريني بالعودة إليه ثمّ ينتقم منّي؟ لكنّي أهبه إلى الشيطان أوّلاً! ومن الوارد أنّ نيّته حسنة حقّاً، لكنّي لا أستطيع أن أصدّقه، وربّما هذا هو عقابي. تقول الناس إنّي وراء شلل ساقيه، ولو أنّ الله يستجيب لي لتسبّبتُ في شلل ذراعيه ولسانه أيضاً.

- كم أنتِ حقودٌ يا ليا.

- حقودٌ أجل، أحقد على مَن يؤذيني. أنا لا أؤذي أحداً. وإن كنتُ قد آذيتُ فإنّما آذيتُ نفسي، فليدعني وشأني إذن. حتّى الأفاعي لا تلدغك إذا لم تستفزّها. لكنّي إذا حقدتُ، حقدتُ لسببٍ وجيه، فالله يعينني في انتقامي، ويرسل إليّ ما يرضيني إلى بيتي. انظر كيف... (كيف أنّني هنا! - فكّر زيبيديو) ... أنّ هذا النذل يكتب إليّ. بعد أن شهَّرَ بي في العالم بأسره يتّهمني بأنّي مشعوذة، وبعد أن هدّدني بالقتل، يرسل إليّ ليبلغني كم هو تعِسٌ. فلينفجر إذن، فإنّ الألم لا يُدفَع إلّا بالألم.

- صحيح -قال زيبيديو، وحنى رأسه أمامها.

سادهما الصمت ثانيةً، ووحّدهما شيءٌ ما تحت سكينة ضوء القنديل مجدّداً: رابط الخطيئة، والعذاب، والتوبة.

شعر زيبيديو بالارتياح وهو يهمّ بالانصراف.

كان قد وضع يده على رأس سالڤاتوري، وأحسَّ أنّ التماس مع شعره الناعم والدافئ كمداعبة يمامةٍ أو حجلٍ في العشّ.

- لا تدرسْ أكثر ممّا ينبغي، وإلّا آلمتَ رأسك -قال، وكان حينها مقتنعاً بما يقول- وداعاً.

- وداعاً وليلةً سعيدة.

تملّكه انطباعٌ بأنّ الولد صار أقلّ نقمة عليه، كما إنَّ ليا لم تعترض على المئة ليرة المطويّة ثماني مرّات التي وضعها في يدها بعجالة عندما رافقته إلى الباب.

ثمّ تنفَّسَ الصعداء. كان سعيداً أنّ ليا أخذت النقود، ربّما أعطاها أكثر من اللازم ضمن زمنٍ قصير، وكان يؤسفه أن تعتاد ذلك. لكنّها كانت بمثابة أعطية يقدِّمها المَرء إلى قدّيسٍ ليحصل منه على نعمة.

وبدلاً من التوجّه إلى بيته ألفى نفسه يمشي في الجهة المعاكسة صوب الميدان. كان يشعر أنّه في حاجة إلى المشي، لعلّه يهرب من هواجسه. آهٍ لو أنّه مِثْل بقيّة أصدقائه وأقاربه لوجد السلوى في الخمر، أو في أحضان النساء. عبثاً. كان رجلاً بلا نزوات، وبالتالي بلا وسيلة للهروب من ذاته وإن لمدّة موقّتة.

جرّته خطواته إلى آخِر البلدة، فوصل أمام تلك الكنيسة الصغيرة والمنهارة ومرج ورود العنبر، وكان القمر في تربيعه الثاني بارزاً في العلا، صافياً، مزيّناً من جديد، تنعكس الأزهار والآجام في ظلّه. وكان الوقواق ينتحب، أو ربّما تظاهر بذلك ليوهم مَن يسمعه بأنّه حزين فيكسب عطفه ومحبّته على الرغم من سوء سمعته.

وما كان زيبيديو ليعطف، أو بالأحرى كان ليعطف، لكنّه استاء من عاطفته تلك. إذ بات ضليعاً بكنه البشر وجوهر الأشياء، وبدا له أنّهم كلّهم زائفون ما دام هو كذلك.

ثمّة ضوءٌ في سقيفة الحدّاد العجوز: يتأجّج لهبٌ من تلقاء نفسه كأنّه وهجٌ طيفيّ.

تقدّم زيبيديو فرأى العجوز جالساً حافياً في إحدى الزوايا، ونظّارته على أنفه، منحنياً يُصلح شيئاً غامضاً. تراءى له مثل مشعوذٍ يتهيّأ لفعلةٍ شيطانيّة. لكنّه إذ دنا أدرك أنّه كان يُصلح حذاءه.

لم يتوقّف العجوز عمّا كان يفعله ليتحقّق من الزائر، إنّما مدّ يده خلف ظهره، نحو كومة الأدوات المهملة التي ما زالت هناك على الأرض، واستخرج من بينها مقصّ تقليم الأشجار.

ضغط زيبيديو على الخطّاف الذي كان يشدّ المقصّ بقوّة فإذا به ينبثق بحدّةٍ وتوعُّد، وكان النابض الجديد مرناً كالبرقة وفي منتهى الجودة.

- لم أتمكّن من المجيء من قبلُ -قال- إذ وقعت بي سلسلةٌ من المصائب، ولعلّها تناهت إلى سمعك.

كان العجوز على دراية لكنّه لم يكن مهتمّاً، ولو وقع العالمُ بأسره لما كان لينحرف بفكره عمّا يشغله.

- تجيد مهنة الإسكافيّ أيضاً، كما أرى -لاحظ زيبيديو.

- ينبغي أن نتدبّر أمرنا، فالله خلق لنا أيادي لكي نفعل بها كلَّ شيء.

- حتّى السرقة.

أجاب العجوز كالصدى لنحيب الوقواق:

- حتّى السرقة.

وما انفكّ يمعن المخرز بالجلدة. كان زيبيديو ينظر إليه ويفكّر في ليا التي كانت هي الأخرى تعمل ليلاً وتستلهم الانتقام من جبروت حقدها.

- عمّ ميكيلي، هلّا سمحت لي بالجلوس هنا، على الجذع الذي تستخدمه لتركيب الحدوة، فهو كرسيٌّ لا يترنّح. آهٍ، ما هذا الذي أرى خلف كرسيّك! قنّينة نبيذ. خير أنيس، هنيئاً لك. لا بأس بهذا المكان، تنفحه النسائم المنعشة، يبدو كأنّ الملائكة ترفرف بأجنحتها حوله. حسناً، أنا لم آتِ من أجل المقصّ فحسب، إنّما لأسألك ما إذا كنتَ قد تسلّمتَ رسالةً من بييترو باولو، الذي يطلب منك أن تذهب إلى العمل عنده. ولم تبلغه جوابك بعد، لماذا لا تجيبه؟

توقّع أن ينتفضَ العجوز من المفاجأة بقيام زيبيديو بدور الوساطة مع تلميذه القديم، لكنّ العجوز واصل عمله.

- ليس عندي ما أجيب به.

- لِمَ لا؟ إنّه يعرض عليك مبادرةً ممتازة تكفل ثروة كبيرة تقريباً، في حين أنّك لا تزال تغرس المخرز في حذائك البالي الذي لم يعد يتحمّل الوخزة.

- مكاني هنا.

- لماذا؟ لكي تلعن مَن سرق صرّتك؟ بإمكانك أن تلعنهم هناك أيضاً، فالله يسمعنا حيث كنّا.

- أنت مهتمٌّ بمن سرق صرّتي، يبدو أنّك واحدٌ من العصابة -قال العجوز حينها وكان قوله لا يخلو من اللؤم.

اغتاظ زيبيديو، ثمّ سرَحَ في النظر إلى المقصّ الذي بين يديه واستأنف الكلام بنبرة جادّة.

- أصغِ إليّ يا عمّ ميكيلي. ثمّة شخصٌ يهمُّه أن تذهب حضرتك لدى بييترو باولو وإن لبعض الوقت. فما قولك في أنّ هذا الشخص سيعوِّضك بمكافأة، في حال لم يعجبك المقام هناك، ووسيلة للعودة والاستقرار هنا؟

- لأيّ هدفٍ أذهب؟

- حسناً، سأكون واضحاً معك، فأنت رجلٌ قويُّ الشكيمة وسيتسنّى لنا أن نتفاهم. الهدف هو أن تذهب لدى بييترو باولو للتأكّد ممّا إذا كان يمتلك حقّاً ما يدّعيه من ثروة، وللتيقُّن من صدق مشاعره تجاه زوجته.

أدرك العجوز كلَّ شيء.

- لقد أبلغني أيضاً بأنّه يريد أن يرتبط بزوجته مجدّداً، ولا مانع عنده من الإتيان بالولد كذلك. إنّني أعتقد أنّ تلك المرأة تحسن صنعاً في العودة إلى زوجها لعلّها تهتدي إلى طريق الله.

- بارك الله فيك يا عمّ ميكيلي. تتحدّث كما لو أنّك قدّيس. -قال زيبيديو منفرج الأسارير- الطامّة الكبرى هي أنّ المرأة لا تريد حتّى الحديث في هذا، تخشى أنّ زوجها يستدرجها ليقتلها.

- يحسن صنعاً إن قتلها، ألم تُذِقْهُ عذاباً أمرَّ من القتل؟ أحالته إلى ثورٍ كسيح، وركَّبت له قرنين وأنزلت به اللعنة. لقد كان بييترو باولو خير فتىً، يحبّها حبّاً شديداً، ومن أجلها سافر بحثاً عن الثروة، وبينما كان يبذل تلك الجهود ردَّت له الجميل بالشكل الذي نعرفه جميعاً.

- كلّنا معرَّضون للخطأ -قال زيبيديو متنهّداً، كأنّما يختلق عذراً لليا- وكلُّ شيءٍ قابلٌ للصلاح.

- غير صحيح، إنّ الله أعطانا روحاً حيّة، ونحن مَن يفعل الخير أو يقع في الشرّ، وما خُلِقنا في هذه الحياة إلّا لذاك السبب.

- لكنَّ التمييز بين الخير والشرّ غير ممكن دائماً.

- إطلاقاً، بإمكاننا التمييز بينهما دائماً: كفى بالإنسان أن يسائل ضميره، فالله يخاطبنا من خلاله.

- إنّك قدّيس -هتف زيبيديو وقد استعاد نبرته الساخرة- ولكنْ فلنعُد إلى موضوعنا. أخاطبك بكلّ صراحة: إنّ لي ولعائلتي مصلحةً في أن تعود ليا إلى زوجها، وعسى أن ينسى الناس سيرتها المخزية مع بازيليو المرحوم أيضاً. حبّذا لو ذهبتَ إلى بييترو باولو، وأن تكتب لنا من هناك كيف تجري الأمور، بحيث تقتنع المرأة بأداء واجبها.

كان ما يقترحه زيبيديو نبيلاً في بعض جوانبه، لكنّ العجوز ما فتئ يهزّ رأسه، مستنكراً، إلى فردة الحذاء التي في يده. كلّا، أيّها الحذاء المهترئ، ستظلّ تحتمل آثار أصابعي المتآكلة وتؤانس قدمي البائدة، فإنّي لن أنخرطَ في الصفقة المربحة التي يدعوني إليها زيبيديو باركاي، وأنا أعرف السبب.

استشعر زيبيديو تلك الكلمات التي لم تُلفَظ، واستشاط غيظاً. وَدَّ أن ينهال عليه بالعصا، بينما كان ينظر إليه بإجلال.

*

اتّجه بيليا إلى الطبيب في اليوم التالي لإجراء العمليّة. رافقه والده، حتّى أمّه أرادت المجيء، لكنّه اعترض بشدّة.

- حتّى الذين يذهبون إلى الحرب لا يرافقهم هذا العدد! دعوني أذهب بمفردي.

كان أبوه يتبعه ملتزماً الصمت، وقد قرّر أن يراقب الطبيب، بعد أن نثرت كلمات ليا اللئيمة في صدره بذور الريبة تجاهه.

إلّا أنّ كلّ شيء سار على ما يرام. كان بيليا شاحباً قليلاً، يكزّ أسنانه ليلجم رجفةً طفيفةً رعدت في فمه، لكنّه لم يشعر بالألم عندما غزّ حدُّ المبضع لحمه الأبيض والرخو في يده، حيث تشكَّلَ القيح الأصفر الزهريّ الذي انبجس حتّى لطّخَ وجه الطبيب المنحني.

لم يكن الطبيب خائفاً من شيء، كان يُجري العمليّة بطريقة بدائيّة، بلا كفوف، وبلا تدابير وقائيّة مشدّدة، سوى أنّه كان حريصاً على تعقيم أدواته جيّداً، وكان يتحدّث لإلهاء المريض.

- ذهبتُ حتّى هذه اللحظة إلى الماريشال بخصوص واقعة القدّيس أنطون والقدّيس بطرس. رأيي أنّ المخبولة تعرّضت لنوبة هذيان،

وعاشتها في عقلها الباطن. ألا تفهم معنى هذا؟ يعني أنّ تلك المرأة تعلم أنّها تتمنّى شيئاً مستحيل الوقوع في زيارة القدّيس، فتصوغ الحدث اللامعقول. تصوغه بحيث إنّ القدّيس أنطون يمثّل جانب الحادثة الخياليّ بينما يمثّل القدّيس بطرس جانبها الواقعيّ. أي إنّ القدّيس أنطون هو مخيّلتها، والقدّيس بطرس هو وعيها للواقع. فتتجنّبُ الحديث عن الجانب الثاني للحادثة، مع أنّه أشدّ ما يؤرّقها. وفي المحصّلة قد يقع الجميع في هذا الأمر، أكثر ممّا نظنّ.

لم يكن بيليا يفهم شيئاً، ولم يعبأ بذلك، في حين أنّ والده الجالس في زاوية محاولاً التستّر على نفسه قدر الإمكان، قد فهم تماماً. وإذ أحسَّ بقلّة استيعاب ابنه، فكّر في أنّ سالڤاتوري لو كان مكانه لرَدَّ على كلام الطبيب وناقشه.

ورغم ذلك، راقه أن يكون بيليا على هذا الشكل.

ما زال الطبيب يضغط على اليد كأنّه يريد تفريغها من كلّ دمائها. كان يضغط ثمّ يجفّف بقطع الشاش فيرميها مضرَّجةً بالدماء في الطست.

- والحال أنّ الماريشال لا يفهم. لا بل ظنّ أنّني أهزأ به. وليس من المستبعد أنّه يعتقد أنّني واحدٌ من هذين اللصّين!

أضحك ذلك القولُ بيليا هذه المرّة، لكنّه ضحك على طريقة الأطفال حين يريدون البكاء: ظنَّ شيءٌ ما في حنجرته، مثل نحلةٍ محاصرةٍ أطلقتها الضحكةُ، فشعر بالارتياح أكثر ممّا كان عليه لو بكى.

- لا تضحك، اثبتْ. اثبتْ! وإلّا أخفيتُ عنك ما أنوي فعله بالماريشال.

- قل لي -توسّلَ بيليا.

- سأخبرك، ولكنْ أخبرني أنت أوّلاً: مَن تتصوّر أنّه يليق بي مِن بين القدّيسَيْنِ: أنطون أم بطرس؟

ظنّ بيليا أنّه يثني عليه:

- القدّيس أنطون.

- لماذا بربّك؟ أتحسَبني مغفّلاً؟ كلُّ القدّيسين مغفّلون.

- لكنّ بطرس قدّيسٌ أيضاً.

- صحيح، لكنّه أثبت دهاءه هذه المرّة. والحقّ يقال إنّه أثبت دهاءه منذ أوّل مرّة أيضاً، عندما آثَرَ الفرار عند صياح الديك، ولهذا يفضّله يسوع على غيره. حتّى إنّه أوكل إليه بوّابة الفردوس. كما إنّ في كلّ الأقاصيص التي تُروى عن أسفار يسوع في الأرض، نجد أنّ الربّ يختار بطرس صاحباً على الدوام.

ما زال زيبيديو يفكّر في سالڤاتوري. تخيّل أنّ الولد كان سيجيب بنباهة: «الأقاصيص من ابتكار البشر»، وأراد أن يقول ذلك بنفسه، لكنّه لم يجرؤ.

- وحتّى في تلك الأقاصيص يمثّل بطرس الإنسان العمليّ، الإنسان الذي يفيد من خبرته وذكائه لينال مرضاة الله على أتمّ وجه، ومن ثَمَّ مفاتيح الجنّة. فإن لم يشأ ما أخرَجَ منها أحداً، وإن شاء أدخَلَ إليها إبليس ذاته. لا يؤسفني تأدية دور بطرس إذن. ومع ذلك، إذا فكّرتُ في الأمر مليّاً، أفضّل دورَ أنطون.

- لماذا؟ -سأله بيليا مشتّتَ الذهن.

- لأنّ أنطون أسعد. أقصد أنطون خاصّتنا، أنطون ذا الخنزير. يعجبني لأنّه طيّب، لأنّه يستطيع العيش بمفرده، ولأنّه في النهاية إذا أحَبَّ أن يعربد بالولائم يوماً ما فبإمكانه أن يذبح الخنزير ويشويه. ها أنت تضحك مجدّداً. اضحك الآن، فالعدوُّ بات خارجك.

- هل تعلم! -قال الطبيب فيما بعد وهو يضمّد يد الفتى من جديد-

أريد إيهام الماريشال بأنّي واحدٌ من بين اللصّيْن، حقّاً، بغية إجراء تجربة علميّة على المرأة. سترى أنّه يزجّ بي، حقّاً، في المكان المنعش(*).

وبينما كان ينظّف أدواته جيّداً، اتّجه نحو زيبيديو.

- اسمعني الآن يا عمّ زيبيديو. عليك أن تصحب هذا الفتى إلى المكان المنعش، المكان المنعش الحقيقيّ: إلى البحر.

كان زيبيديو قد نهض منذ قليل، وظلّ واقفاً هناك بصلابةٍ مشوبةٍ بالهشاشة أيضاً، تشمل كلَّ شخصيّته، كأنّه دمية عرائس.

- إلى البحر؟

- إلى البحر، لكي يستنشق هواءً نقيّاً. ليس على الفور، يجب أن تتعافى يده جيّداً قبل ذلك. لاحقاً، في يونيو، في يوليو، حتّى في أغسطس إذا اقتضت الحاجة. لماذا تنظر إليّ هكذا؟ لن تضطرّ إلى استدانة المال أو سرقته للقيام برحلةٍ كهذه.

وبدا لزيبيديو أنّ الطبيب يلمّح بخبثٍ شديد.

*

لم تتعافَ يد بيليا في يونيو. تحسّنت قليلاً ثمّ وَرَمتْ من جديد، فتوجَّبَ عليه وضع الكمادات وإجراء العمليّات. حتّى الطبيب أبدى ذهوله وقال بوضوح إنَّه لم يشهد حالة مماثلة من قبل.

وكان بيليا في الأثناء يُحبَط، ويغدو هزيلاً وشاحباً ومكتئباً، لم يعد يودّ الخروج من البيت، ولا الذهاب إلى الطبيب، إذ فقد ثقته به أيضاً.

كان يمضي يومه في المطبخ، جالساً عند الباب، لا يهتمّ إلّا بشؤون النساء. وأمست روزا ضحيّته، تحتمل توبيخه وازدراءه بصبرٍ نافد. ومن

(*) «المكان المنعش»: السجن. وهو تعبيرٌ إيطاليٌّ يراد به السخرية. (المترجم)

جهتها ما انفكّت تلهج بالفكرة نفسها، وهي أن تتحصَّلَ على غرضٍ شخصيّ من ليا، منديلٍ أو حجاب، لكي تلفّ به يد سيّدها الصغير فتقضي بذلك على الداء الغامض.

حرّم عليها أسيادُها إلقاء التحيّة على ليا، كما لم تكن تثق بأحدٍ توكله المهمّة وكتمان السرّ. فكانت تنتظر فرصةً مواتية، وها هي تتهيّأ لها أخيراً.

في عشيّة يوم القدّيس يوحنّا، وبعد ليلةٍ حارّة وخانقة، لم يشأ بيليا النهوض عن سريره. كان يشعر بالهوان، والإعياء من الأرق وريح الشهيلي الساخنة، وقال إنّه مصابٌ بالحمّى. طردت أمّه الذباب من الغرفة بردائها، ثمّ أغلقت الدفّات وألقت بنفسها كالكيس الفارغ على الكرسيّ، حيث اعتاد ابنها قضاء ساعات خموله وضجره.

استغلّت روزا ذهاب العمّة آنّيا إلى القدّاس، وهرعت نحو سيّدتها، كما لو أرادت أن تمدّها بالعون.

- أما زال بيليا مريضاً؟

- لا يزال مريضاً، أجل، يقول إنّه مصابٌ بالحمّى. هذه البلوى لا تنقضي أبداً. -غمغمت السيّدة بإجهادٍ كبير. وسالت دموعها على وجهها المغضّن بالقلق. -لا جدوى من الطبيب -استرسلت- فكّرنا أنا وزيبيديو أخيراً أن نأخذ الفتى إلى البروفيسور. وإذا اقتضت الضرورة ذهبنا حتّى إلى روما، على أن ينتهي هذا العذاب.

- ومع ذلك... قلبي يحدّثني أنّ العلاج أقرب ممّا نظنّ.

- قولي إذن! لقد أقمتُ سبع صلوات لأرواح المطهر، وضحّيتُ بعجل للقدّيس أنطون، وزكّيتُ بسبع سكودات للقدّيسة لوتشيا، لكنّ ابني لا يشفى.

تشجّعت روزا.

- لا بدّ أن نسلب ليا أحدَ أغراضها، هل تودّين أن تسمعي منّي؟ سترين كيف يتلاشى المرض، وسنكون في أحسن حالٍ جميعاً، لأنّنا بصدد لعنة. ألا ترين كيف أنّ السيّدَ أيضاً لم يعد مثلما كان؟ تغيّر مزاجه بين يوم وليلة، وأمسى عابساً مغموماً مثل أبتر نادم. وماذا عن المصائب المتتالية؟ الماشية التي نفقت، والقمح الذي يبس قبل أوانه، والجراد الذي اجتاح الكروم؟ ألا ترين، حتّى الدجاج أصيب بالمرض... لا يجرؤ أحدٌ على مصارحتكِ، لكنّ الجميع موقنٌ من أنّها لعنةٌ هذه التي حلّت بنا. بسبب تلك الساحرة، المشعوذة، ليا. لا بدّ لنا من أن نجد التعويذة.

كانت السيّدة تبكي في صمت.

- أوفديني إليها -توسّلت الخادمة وهي تنحني بيدين مضمومتين، وباحت لها بفكرتها: في إحدى الأمسيات، أذهب إليها خلسةً وأسلب منها غرضاً، باسم الآب والابن والروح القدس، وستجري الأمور على أكمل وجه. أوفديني إليها بشيءٍ ما.

- خطرت لي هذه الفكرة أنا أيضاً، أن أرسلَ إليها شيئاً مّا، ولكنْ هل ستقبله؟

- تلك؟ تلك تقبل كلّ شيء، ربّما تكيل اللعنات عموماً، لكنّها تقبل كلّ شيء.

- وماذا ستقولين لها؟

- سأتدبّر هذا الأمر، كوني مطمئنّة، سأؤدّي دوري بمهارة. سأذهب إلى الخارج في هذا المساء، سأقول للعمّة آنّيا إنّي أخذتُ الإذن منكِ للذهاب إلى النهر وتبليل قدميَّ فيه وقطف أعشاب القدّيس يوحنّا. فتلك الأعشاب كذلك نافعةٌ لاتّقاء البلوى. اسمحي لي أنتِ

بالذهاب، وأنا أتكفّل بما تبقّى.

تناقشتَا حول الهديّة التي ستحملها إلى ليا: شيءٌ تهواه، يطيّب خاطرها بعض الوقت على الأقلّ. ينبغي ألّا تثير شكوك العمّة آنّيا، ذات الحقد الذي لا يُقهَر، وهي التي تعرف كلّ ما يقع في الدار. وبعد الأخذ والردّ قرّرتا أن تعرضا عليها مالاً.

- ولكنْ قد تعتبرها إهانة.

- كم أنتِ بسيطة يا سيّدتي! ما عليكِ سوى أن تعطيني المال، وأتولّى أنا ما تبقّى.

سَبَتَ بيليا طوال اليوم في غرفته، حيث كان القيظ يسرِّب من خزانة المؤن المجاورة روائحَ الجبن الدسم والمربّيات، كما سرَّبَ عطنَ الإسطبل من الفِناء. وكان الذباب يحوم في الظلمة، يمرّ على يديه ووجهه، ليثير فيه رعشةً غاضبة. كثّفَ حركته على تلك اليد المعتلّة حتّى بدا راغباً في التغلغل تحت الضماد ومصّ الجرح.

وعلى الرغم من نومه، تملّكه انطباعٌ بين الحين والآخر بأنّه يسقط من على السرير فيفيق جفلاً. لم يشأ أن ينهض، ولم يعرف هو نفسه السبب. كان يشعر أنّه شرّير، تجتاحه رغبةٌ جائرةٌ في إزعاج ذويه، لاسيّما والدته التي ما فتئت تأتي لتنظر إليه وتتلمّسه وتسأله عن حاله.

- الطقس حارٌّ جدّاً هذا اليوم يا بيليا، إنّه أوّل أيّام القيظ، لذا فأنت متشوّش. سيعود أبوك من الأرض حاملاً معه تين القدّيس يوحّنا وتفّاحه.

كانت تودّ أن تقول له «ستخرج أنت أيضاً، إلى المروج، لتبلّل قدميك في النهر»، لكنّها رغبت في ألّا يفكّر مطلقاً بالخروج: من الأفضل ألّا يخرج أحدٌ من الدار في تلك الليلة، ما عدا الخادمة.

وكان بيليا سارح الفكر في الأرض، والكروم، ومراعي عمّه: هناك حيث النسائم المنعشة، وحفيف الأشجار الباسقة مع هبوب الريح، والأرانب التي تركض مسرعةً من أجمةٍ إلى أخرى منتصبة الأذنين ومذعورة العينين. ففي العام السابق، من تلك الأيّام تحديداً، كان في الأرض صحبة عمّه: لكنّه يذكر أنّ عمّه لم يكن يقتاده في أراضيه بسعادةٍ كبيرة، كان يبدو أنّه لا يريده أن يطمح إليها بلا طائل. ولهذا السبب بالضبط طمح بيليا إليها: لا لقيمتها النفيسة، إنّما لجمال ربوعها.

وها هي آنذاك باتت ملكه ولا يسعه التمتّع بها. كما لو أنّ المهر الملعون أدّى دور حصان الجحيم، فاقتاده إليها، في ذلك اليوم الأوّل، ليريه الجنّة ومن ثَمَّ يطرده منها وإلى الأبد.

إلى الأبد؟ أجل، إلى الأبد. لأنّ حدسه يخبره بأنّه سيموت عاجلاً. كان يشعر أنّ عمره يتناقص يوماً في إثر يوم مثل شيءٍ يذوب، مثل زهرةٍ تذبل. وما دام موته وشيكاً، ما عاد له رغبة في الحركة أو رؤية النور.

شعر بالتحسّن عند المساء، مثلما تنبّأت أمّه. رياح الغرب تنعش الأجواء وتزيح القيظ والأبخرة اللاهبة نحو البحر. والقمر يشمخ من بين تلك الأبخرة، منفوخاً ومحمرّاً في البدء كأنّه جاء من خلال صحراء محترقة، ثمّ ارتخى وصفا تدريجيّاً، فصار نقيّاً كالصقيع الذي ينتشر على الأرض المحمومة.

وغفت الأرض في حلمٍ ما زال يلهج بحرارة النهار. وكلُّ شيءٍ وكلُّ صخرةٍ وكلُّ قِدْرٍ في البلدة، وكلُّ قصبةٍ وكلُّ ورقةٍ في المروج، اتّخذت شكلاً مختلفاً، فراحت تتضوّع عطراً، فإمّا تلألأت وإمّا تغمّدتها الظلمة.

دخلت الأمّ إلى غرفة بيليا وفتحت النافذة، فرأى السماء الصافية فوق حدّ السقيفة الجديدة، وسمع قعقعة أحد الخيول في الإسطبل واشتمّ رائحة

التبن والبرواق. كذلك انقشع عنه الكابوسُ الذي راح يحلّق في الخارج مع خفافيش الفِناء.

- قم! -قالت أمّه- سيعود والدك بعد قليل، وأنت تعلم كم يؤسفه أن يراك على هذه الحال. لماذا تتمارض وأنت لستَ مريضاً؟

نهض وخرج إلى الفِناء.

أجل، كان يعلم أنّ والده يعاني، يعاني أكثر منه. فمنذ مدّةٍ لم يعد والده يقول شيئاً، بخصوص اليد المريضة، لكنّه كان يتحدّث دائماً عن الذهاب إلى البحر. وكان سيذهب إلى البحر هو أيضاً. كان لديه هوسٌ بالحراك، والمضيّ بعيداً. فكان ينزل إلى الأرض في كلّ يومٍ ويعمل مع الخدم، وأثناء عودته يطوف في البلدة دائماً، كما لو أنّه يخشى البقاء في الدار.

ها هي خطى فرسه، في الطريق حيث تتردّد همهمة أصوات النساء وأناشيد أطفالٍ يرقصون ويلعبون.

أهالي البلدة كلّهم في الخارج، يجذبهم ضياءُ الشفق والقمر. يبدون مأخوذين بما يشبه السكرة جميعاً، كلّهم يدردشون ويضحكون سعداء كأنّهم قد هجروا أكواخهم الساخنة والنتنة إلى الأبد ليسكنوا ذلك البيت المضيء الرحيب، بيت الليلة القمريّة.

ينقضّ الكلب ليخدش البوّابة وينبح معترضاً، لأنّ دار أسياده هي الوحيدة المغلقة كالسجن.

تناديه روزا من باب المطبخ، تخاطبه كأنّه إنسان، وترمي إليه من الصحن عظاماً تتهادى على حصى الفِناء. لكنّها مضطربة هي الأخرى، عيناها لامعتان، ثمّ تقفز فجأةً نحو مخزن الحطب بصيحةٍ مدوّية لتمسك بقبضتها يراعةً طائرة، وتتّجه لتفتح البوّابة لسيّدها.

يدخل السيّد على فرسه إلى الفِناء، فيصل طيفه الأسود حتّى القمر

الناتئ فوق الغار، فيتعتّم الليل أمام بيليا كثيراً بسبب طيف أبيه وفرسه.

- كيف حالك؟ -يصيح، بينما تشدّ روزا اللجام بيدها وتطبق بالأخرى على اليراعة.

يريد بيليا أن يجيب: لستُ بخير، إنّي أموت، لقد متّ.

ترفض شفتاه الكلام، لكنّ صمته أشدّ حزناً من كلامه. لا يحرّكه صياح روزا التي تنظر في صرّة سيّدها.

- «التين، التين!»

*

لم يكن لأحدٍ سواها رغبةٌ في تناول أوائل قطاف الأرض. كان زيبيديو لا يأكل الفاكهة أبداً، لأنّ الفاكهة والحلويات تليق بالنساء حصراً، وحتّى زوجته والعمّة آنّيا ليستا شرهتين. أمّا بيليا فما كان راغباً في شيء. أو بلى، كان يرغب في أشياء نادرة وإذا استطاع الحصول عليها ما عاد يريدها.

- عليكم أن تبعثوا سلّة التين هذه إلى الطبيب -قال عندما رجته أمّه أن يتناول منها- فأنتم لا تبعثون له شيئاً.

- الطبيب ليس في حاجة، لديه من الفاكهة أكثر ممّا لدينا.

- لا يهمّ! مجرّد علامة على امتناننا له. الكلّ يرسل إليه الهدايا، ونحن لا شيء.

- لِما يبذله من أجلك! -قالت العمّة آنّيا.

- يبذل من أجلي ما في استطاعته -ردّ بيليا حانقاً. -الطبيب ليس إلهاً ليتمكّن من إشفائي. الله هو وحده القادر على شفائي، والله لا يريد.

- ما بك هذا المساء؟ -سأله أبوه.

لكنّ بيليا لم يردّ هذه المرّة أيضاً. بدا كأنّ مشكلته مع أبيه تحديداً. وكان

أبوه يشعر بذلك فتراوده كآبةٌ لاذعة.

- حسناً. -قال حانقاً هو الآخر- ابعث سلّة التين إليه إن أردت، ابعثها. إنّه يطمع بما هو أبعد من سلّة تين، إنّه يريد سلّة نقود.

- فأعطه نقوداً إذن! لا فرق بين إخباء النقود في الجدار وإعطائها للطبيب أو الشيطان على حدٍّ سواء.

- إن لم تخرس صفعتُك كفّاً، قويّاً، جدّاً!

- ما حالكم هذا المساء جميعاً؟ هل يخزكم الشيطان بشوكته؟ -قالت الخادمة وهي تغطّي السلّة بأوراق العنب- علينا أن نحيا مع الربّ في هذا المساء، فهي عشيّة القدّيس يوحنّا. ينبغي أن نغسل أنفسنا في النهر لكي نستعيد بركة المعموديّة. أنا ذاهبة.

- أنتِ تحسنين صنعاً إن بقيتِ في الدار -قال زيبيديو- تعلمين أنّنا في حِداد.

عبّرت العمّة آنّيا أيضاً عن رأيها المخالف لرغبة الفتاة، لكنّها حين أحسّت أنّ زيبيديو سيخرج من جديد قطّبت حاجبيها وغيّرت رأيها.

أين يذهب زيبيديو عندما يخرج في المساء؟ لم تخنها فطرتها، وما كان لشيء أن يمنعها عن الكلام لولا وقارها الجليل وإحساسها بالترقّب وإيمانها الأعمى بعدالة الله.

- لقد أذنت لي السيّدة، لن أخرج لاقتراف الأذى، فالقدّيس يوحنّا يرانا.

- هل أذنتِ لها حقّاً؟

كانت السيّدة امرأة سلبيّة وضعيفة ولا تملك زمام المبادرة قطّ. وربّما هذا ما يدفع جميعَ مَن في البيت لاحترام رغباتها القليلة. أجابت نعم، فحصلت روزا على الإذن بالخروج.

*

غسلت قدميها في الطست الحجريّ، بجانب البئر، قبل أن تخرج، لأنّها أرادت أن تغطّسهما نظيفتين أساساً في الغسول الدينيّ في النهر. ودّعتِ الجميعَ كأنّها ذاهبةٌ في رحلةٍ طويلة ولفّعت رأسها بالمنديل الأسود الذي عقدته فوق عينيها.

خرج بيليا إلى البوّابة ليتجسّس عليها، فرأى أنّها تمشي بمحاذاة الجدار حيث كان الظلّ عميماً ولم تختلط بمجاميع النساء اللواتي كُنَّ ذاهبات إلى النهر. اجتاحته رغبةٌ في الذهاب هو الآخر للانضمام إلى الأولاد الذين يركضون حفاةً، والفتيات اللواتي يتضاحكن عن الحبّ. غصَّ بتلك الرغبة وكاد يجهش باكياً. لِمَ لا يذهب؟ لو ذهب ليغمر يده في مياه النهر ربّما يُشفى. ما الذي يمنعه مَن الذهاب؟ الحِداد؟ المرض؟ إرادة أبيه وأمّه؟ كانت تلك الأفكار تنعجن في فكرةٍ واحدة مشحونةٍ بنقمةٍ عميقة. أراد أن يتمرّد، وأن يخرج من سجن داره وتعاسته، وأن يهرب بعيداً.

اقترب من باب المطبخ لكنّه لم يدخل. رأى أنّ أباه يدخّن الغليون، كان يدخّن ساخطاً، يكزّ على القصبة بأسنانه أو يحاول إخفاء وجهه بالدخان. رأى أنّ أمّه تنهمك صامتةً بالأعمال التي وجَب على روزا إنجازها. رأى أنّ العمّة آنّيا تغزل الصوف منعزلةً عن الآخرين، بملامح جلفة وهيئة متغيّبة مثل ملاك الموت. لا أحد يعبأ به. كانوا يحسَبون أنّه داخل أنفسهم، لذا يتوهّمون أنّه في مأمن. فعاد إلى البوّابة، أغلقها شيئاً فشيئاً من الخارج ومضى هو أيضاً في تلك الليلة المقمرة.

كان ضوء القمر صافياً، حتّى إنّ الأشياء تتّضح بدقّة أكثر ممّا هي عليه تحت نور الشمس، وتبدو أشدّ تماسكاً، لا يتخلّلها سوى تباينِ

طفيف ما بين الأبيض والأسود، حيث لا يُعرَف أيُّ اللونين سيطغى على الآخر.

وكان بيليا في قرارة نفسه يحسّ بذلك التباين: ظِلٌّ وضوء، ألمٌ وفرحة. بل إنّ فكره اللاهج بالمرض، وتخوُّفه من دنوّ أجله، فاقما إحساسه بالسعادة المؤلمة. ما الجدوى من العيش طويلاً؟ ألكي نعاني مدّةً أطول؟ كان الملل من كلّ شيء يعتريه: ولكنْ لماذا؟ لماذا؟ هو يعرف السبب في صميمه جيّداً: هو يعرف أنّ الحياة بالنسبة إليه باتت جرحاً يشبه جرحه، ملغزةً ولا شفاء لها، يده اليمنى قد لُدِغَت بإجحاف العقاب، فما عادت الحياة تستحقّ عناء عيشها.

وفي الأثناء كان يمشي، مخفياً يده بالمنديل الغامق، إذ بدا له أنّ الضماد الأبيض يشعّ تحت الضوء، وكان يحاذي الجدران أيضاً يبحث عن التواري في الظلّ على أعقاب روزا.

وكاد يبلغ الخادمةَ بخطواته الطويلة، لكنّه رأى أنّها تتلفّت إلى الخلف تخامرها الشكوك، فتراجع إلى الوراء هو الآخَر لئلا يُكشَفَ أمره. تنحّى وتوقّف عند منعطف الطريق، ثمّ عاد إلى الأمام. لم يجد أثراً لروزا. كان القمر يضيء البيت الأبيض الصغير، والباب المطليّ، وإيوان الدار حيث تسكن ليا. وكان لتلك الواجهة ضياءٌ غامض، كأنّها من النور مُجتَرَحة، بين البيوت القاتمة.

وسرعان ما انتابه حدسٌ بأنّ روزا دخلت إلى هناك. لماذا، لم يكن يدرِي. هل من السهل معرفة ما يدور في خلد الآخرين؟ فإذا به يشعر بضرورة أن يعرف إن كانت روزا هناك أم لا، واستبدّت به رغبةٌ في طرق الباب، والدخول، والتثبّت من الأمر.

وإذ وصل الباب لم يجرؤ. كان في عمقه يخاف من ليا لأنّ تلك المرأة بالنسبة إليه تمثّل الشرّ، مثلما يمثّل زيبيديو الشرَّ بالنسبة إلى سالڤاتوري.

لم يطرق، لكنّه استمتع بالصياح: صيحةٌ يستخدمها الرعاة لإخافة اللصوص في ليالي العاصفة، نابعةٌ من البلعوم وتتميّز بالصفير، بنبرةٍ شيطانيّة كأنّها تنبثق من باطن الأرض.

ثمّ ركض ثانيةً ليختبئ خلف سورٍ منخفض بعد بيت ليا بقليل.

ومن هناك رأى روزا تخرج متخوّفة: الطريق مقفر، ظلّت الفتاة لوهلة حائرةً ما بين التقدّم إلى الأمام والرجوع إلى الخلف. تقدّمت إلى الأمام، وحينما وصلت بجانب ذلك السور فتحت قبضتها، وبدا أنّ زهرة بيضاء كبيرة تتفتّح في قبضتها، فإذا هي منديلٌ سرقته من ليا.

وثب بيليا إلى السور وردّد صيحته، وبدا أنّه الشيطان الذي يقفز من العلبة.

*

أخذت روزا تركض إلى الأمام من دون أن تصرخ. لم تجرّب مثل ذلك الرعب من قبل، ولا حتّى إبّان الحريق. كان قلبها يخفق في رأسها، كأنّه يعدو على صهوة جواد.

استعادت رشدها أو كادت، وألفت نفسها وسط مجموعة من النساء في آخِرِ البلدة.

- لقد رأيتُ الشيطان. -قالت لاهثة الأنفاس. -ألم تسمعن صيحته؟

- أين، أين؟

- هناك... هناك... قرب بيت ليا.

ضحكت النساء.

- قد يكون القدّيس أنطون.

كنَّ يضحكن لكنّ ضحكاتهنّ اتّشحت برعشة ذعر. اقترحت إحداهنّ العودة إلى الخلف لرؤية الشيطان، لكنّ روزا استأنفت الجري إلى الأمام وقد أفرطت في إبداء رعبها.

هناك بعض النساء وكثير من الفتية في الدرب الذي يقطع الحقول ما بعد الكنيسة البائدة.

وفي لحظةٍ واحدة انتشر في المراعي خبرُ أنّ روزا خادمة آل باركاي قد رأت الشيطان. سارع الفتية إلى الاحتشاد حول روزا يشدّون أهداب ردائها وثيابها حتّى عرفوا منها كلَّ التفاصيل. ثمّ عادوا إلى الخلف راكضين مفعمين بالجسارة مع أنّهم متكاتفون في مجموعةٍ لاكتساب الشجاعة.

لقوا بيليا في الطريق، وكان قادماً نحو المراعي، تغمره البهجة هو أيضاً: شعر أنّه طرد شيئاً شرّيراً من جسمه عبْر صيحاته.

وصل إلى آخر الطريق الذي بات مقفراً بعد أن تقدّمت النساء إلى الأمام. رأى هناك طفلةً تبكي: ظنّ أنّها طفلٌ للوهلة الأولى، بسبب شعرها القصير ووجهها الذكريّ. لكنّه توقّف ليسألها ما الذي تفعله هناك بمفردها وما اسمها، فسمعها تجيب بين شهقاتها:

- إيلّا الجميلة. إخوة تركوا إيلّا. ركضوا. شيطان. خائفة إيلّا.

- تعالي معي -قال ممسكاً يدها- لا ينبغي أن تبقي هنا وحيدةً. هل تسمح لكِ أمّكِ بالتسكّع هكذا؟

- إيلّا خرجت. تركها الإخوة.

- ولكن أين أمّك؟

- بيت.

- آه، هل هربتِ؟ حقّاً، ألستُ أنا قد هربتُ أيضاً؟ حتّى أمّي في البيت

ولا تعرف أين أكون.

انساقت الطفلة، وكفّت عن البكاء وكانت تجرجر قدميها الصغيرتين على الغبار بعد أن أعجبتها المغامرة.

وكان بيليا يشدّ على يدها الناعمة الدافئة والمبلّلة بدموعها، فشعر أنّه يمسك في قبضته طيراً صغيراً.

- سنجد الآن امرأةً تقتادكِ إلى البيت. مَن يدري كم ضربة على القفا ستجنين، ضربات كثيرة!

أقرّت الطفلة اللبيبة.

- إيلّا تُضرَب كثيراً.

توقّفت فجأة، انحنت، وأطلقت صيحة فرحة قصيرة. كانت تحمل من الأرض شيئاً عجيباً.

- أريني. ماذا وجدتِ؟

أرته إيّاه بريبة، إذ خشيت أن يستولي على الغرض النفيس: قطعة زجاج صغيرة.

- ليلةً سعيدة يا عمّ ميكيلي -سلّمَ بيليا على الحدّاد، إذ صار بجانب سقيفته- ما الذي تفعله هنا؟ هل تتربّص في كمينٍ لاصطياد الخنزير البرّيّ؟ تعال معنا لغسل القدمين.

لم يكن العجوز يعمل في تلك الأمسية، إنّما جالسٌ في سكينة الزاهدين، المسبحة في يده، في عمق سقيفته المضاءة بالقمر، وزجاجة النبيذ على سطح السندان الفضّيّ.

نظر إلى بيليا، ثمّ إلى الطفلة التي كانت تحدّق إليه مفتونةً.

- أهي أختك؟

- حبّذا! -هتف بيليا بنبرةٍ صريحة- كنتُ سألهو معها على الأقلّ.

- ابن مَن أنت؟
- ابن أبي وأمّي. -ثمّ ندم واستدرك- ألا تعرفني؟ أنا جوفانّي ماريّا باركاي، ابن زيبيديو.
- وما بها يدك؟
- داء. -قال بيليا وتعجَّبَ أنّه لم يعد يفكّر في يده منذ مدّة.
- وابنة مَن هذه الطفلة؟
- لا أدري، أعتقد أنّها من آل بيلي. وجدتُها وحيدةً في الطريق وأخذتُها معي. سأبحث عن امرأةٍ تقتادها إلى البيت.
- إلى البيت -ردّدت إيلّا وكانت متعبة ومذعورة، وشدّت على يد الفتى.

فحملها بالأحضان، على ذراعه اليسرى، واحتار ما بين الذهاب إلى المرج أو العودة إلى البلدة.

- تقول إنّها كانت مع إخوتها الصغار، وقد تركوها على قارعة الطريق.
- وهل يسمح لها أبواها بالخروج هكذا؟
- إن لم يسمحا لنا خرجنا بكلّ الأحوال -قال وهزّ الطفلة على ذراعه.

بدأت إيلّا تستمتع باللعبة، تضحك وتبدو أسنانها الصغيرة وعيناها كأنّها من لؤلؤ. فتحتان عميقتان تغوران في وجنتيها المكوّرتين المحمرّتين. جميلة مثل فاكهة، وعلى الرغم من اتّساخ ثيابها كانت تفوح برائحة الكرز. وكان بيليا يشعر برغبةٍ في عضّها مثلما تُعَضُّ الفاكهة تحديداً، من هول اللذة.

لماذا لم يهبه والداه إخوة صغاراً وأخوات؟ لا يهبانه سوى الأراضي والأراضي، فيشعر أنّه تائهٌ في صحاريها.

بدأ يلاعب الطفلة بالفعل: يلامس وجنته بوجنتها، يتقارصان، يشيحان وجهيهما للتظاهر بالنظر بعيداً وعدم رؤية أحدهما الآخر، ثمّ

يلتفت كلٌّ منهما نحو الآخر معاً ويهتفان بالفجاءة متظاهرين بالفزع.

كان العجوز يشاهدهما.

- كم عمرك؟ -وجّه السؤال لبيليا.

- ستّة عشر.

- تبدو الصغيرة في سنّها الثالثة. أنت أكبر ممّا يلزم للزواج بها.

انتاب بيليا إحساسٌ غامضٌ بالفرح، كأنّه يشهد على رؤيا. أجل، سيتزوّج يوماً ما، وسينجب أولاداً هو أيضاً. كان قد فكّر في الموضوع أحياناً لكنّه ما فعلها إلّا بغية إجراء حساب أو مدفوعاً بشهوةٍ حسّيّة، أمّا حينذاك فكان الوضع مختلفاً. بدا له أنّه يعانق في تلك الطفلة امرأةً هي زوجته وابنته في آنٍ، امرأةً تغمره بالمتعة والحنان في الوقت نفسه.

- سأتزوّجها بكلّ الأحوال -صاح- أحقّاً سوف نتزوّج؟ هل تريدينني يا إيلّا؟ هل أعجبكِ؟

- تعجب إيلّا.

- جيّد. سأوفد العمّ ميكيلي ليطلب يدكِ للزواج بي إذن. ماذا سنفعل الآن؟ هلّا ذهبنا إلى النهر؟

- ابق هنا -قال العجوز، كأنّه يخشى أن يتركهما يذهبان بمفردهما- سيعود إخوتها للبحث عنها. هناك أولاد، ربّما أشقّاؤها.

- لا أريد تسليمهم إيّاها، فلقد وجدتُها وباتت لي.

انتهزت إيلّا سطوتها، فنزعت عنه القبّعة ووضعتها على رأسها.

- أعيدي القبعة إلى رأسي فوراً!

- كلا.

- فوراً! وإلّا أنزلتُكِ وأكلكِ العمّ الغول. انظري إليه، الغول، هل ترينه؟

ثنت إيلّا رأسها الصغيرة على كتفها ونظرت إليه نظرة اللعوب.

- ألا تهدي القبّعة لإيلّا الجميلة؟

- آهٍ يا لكِ من ماكرة! تفضّلي خذيها. فكلُّ ما هو لي سيكون لكِ.

تقدّم ولدان، لكنّهما ليسا إخوة إيلّا، ولا يبدوان من المشاكسين. كانا يتقدّمان بهدوء، يتناقشان بأمور معقّدة، يرتديان ثياباً أنيقة كأنّهما ذاهبان إلى المدرسة.

ضمّ بيليا الطفلة إليه كمن يريد صونها من خطرٍ خارق الأوصاف، لأنّه عرف الأصغر بين الصديقين: سالڤاتوري.

*

عرفه سالڤاتوري بدوره والتصق برفيقه فطريّاً. يبدو أنّ ما بين القريبين مهابةً أكثر ممّا هو الحقد. وكان سالڤاتوري ماضياً في طريقه من دون أن يكدِّره حضورُ بيليا لولا أنّ رفيقه توقّف إذ عرف الطفلة.

- رافايلّا، ما الذي تفعلينه هنا؟

مدّت الطفلة ذراعيها نحوه ونادته -پاپي، پاپي- فهو أحد أقاربها وكلّما رآها لعب معها.

كان بيليا يضمّ الطفلة إليه مع أنّ الولد لم يكن ينوي استعادتها لئلا يُتلِفَ ثيابه الجديدة، وكانت إيلّا في الأثناء تلهو، وأخذت تصيح، فيما نظر سالڤاتوري بعنادٍ وازدراء إلى ابن عمّه.

- أنزِلها أرضاً -قال الولد- لماذا تحملها هكذا؟

- لأنّ هذا ما يحلو لي -ردّ بيليا مركّزاً أنظاره الناقمة تجاه سالڤاتوري- ومَن لم يعجبه الكلام فليخطُ خطوة إلى الأمام.

كانوا سيتشاجرون، ناهيك بانضمام أولاد آخرين من بينهم إخوة إيلّا،

أرادوا أن يأخذوا الطفلة، لكنّها تشبّثت بعنق منقذها ثانيةً ورفضت أن تترك أحضانه.

فاقترح الإخوة، بعد أن أُنهِكوا من الركض، أن يترافق الجميعُ في الذهاب إلى النهر. انساق بيليا معهم، والطفلة بين ذراعيه. كان أكبرهم وأطولهم قامة، يتبعه ظلّه الطويل على عشب المروج الرماديّ، وكان يشعر بأنّ سالڤاتوري الذي يمشي خلفه يستمتع بالدوس على ظلّه.

افعل ما طاب لك -قال في نفسه- فأملاك العمّ بازيليو لي وحدي.

وكان الأولاد يتحدّثون عن الشيطان الذي تجلّى لروزا وأكّد أحدهم أنّه رأى شبحاً خلف سور.

- اذهب إلى الجحيم! -قال رفيق سالڤاتوري هازئاً، واكتفى الجميع بذلك لكي يضحكوا. كانت أصواتهم تصدح في صمت المراعي بين جوقات الجنادب. بيليا وحدَه صامتٌ حتّى بدا أنّه أبٌ لهم جميعاً. وكانت السعادة ستغمره، بثقل الطفلة العذب على صدره وعضده، لولا وجود ظلّ سالڤاتوري على ظلّه. في المقابل فكّر سالڤاتوري أنّه لو كان وحيداً في تلك النزهة لاستطاع أن يكتب خير موضوع إنشائيّ بعنوان «ليلة القدّيس يوحنّا» في إطار تلك المروج الخياليّة حيث كلّ نبتة تومض وتغنّي، حيث تبدو أزهار الخرشوف والبرواق مثل الورود والزنابق، حيث تربط الفتياتُ آجامَ الطقسوس بأشرطة حريريّة لتحديد ملكيّتها ثمّ تقطف كلٌّ منهنّ رياحينها عند الفجر لإعداد التعويذات، حيث تنبسط نِعَمُ السماء على الأشياء الدنيويّة.

*

وصلوا أخيراً إلى النهر الذي استحال جدولَ ماءٍ تتخلّله المستنقعات من هنا وهناك ما بين شجيرات الدفلى المزهرة، على المجرى الذي بدا طريقاً رمليّاً ورطباً.

ضياءُ القمر، تشابُكُ ظلال الأحراج والآجام، الخلفيّاتُ الكحليّة والفضيّة، الأشخاصُ الذين يسيرون حفاةً على الرمل ويذهبون إلى غسل أيديهم ووجوههم وأقدامهم، ويرشمون الصليب بالمياه الجارية: كلٌّ ما في المكان يسبغه بجمالٍ عجائبيّ.

كانت روزا تعقد أربطة حذائها جالسةً على طرف النهر عندما رأت بيليا قادماً والطفلةُ بين ذراعيه، وسالڤاتوري بجانبه. هل ما تراه حلماً؟ أم إنّها جُنّت في تلك الليلة؟

- بيليا! -صاحت وهي تنتفض بين مجموعة الأولاد الذين احتشدوا حولها لاستجوابها عن الرؤيا من جديد- هل أنت بيليا حقّاً؟ وما الذي أخرجك من البيت؟ وما الذي تفعله هذه الطفلة على ذراعك؟ هل جننتَ؟

- خرجتُ لأرى إلى أين كنتِ ذاهبة. -قال بحدّة، ممتعضاً من أنّها تخاطبه بهذه الطريقة في حضور سالڤاتوري. شحب وجهها وزاغت عيناها ووقعت منكمشةً على نفسها، كما لو أنّها فُرِّغَتْ من أحشائها على حين غرّة.

أغمي عليها. تباعد الأولاد، ووقفوا بدائرةٍ حولها، لم يجرؤ أحدٌ على مسّها. وفي الأثناء قدمت نسوةٌ أخريات، نزعن الحجاب عن رأسها، وفِككن حزامها ورشقن وجهها بالماء. لم تستعد وعيها، بل اصفرّ وجهها تحت ضوء القمر كأنّها جثّة. أنزل بيليا الطفلةَ عنه، ونظر قلقاً ومتخوّفاً من احتمال موتها. حتّى سالڤاتوري مدَّ عنقه ليشاهد، لكنّ فضوله كان

فاتراً وساخراً. وكان هو الذي حمل حجابها الأسود ومنديلاً أبيض صغيراً أسقطته النسوة من حزام روزا.

- أغمي عليها لأنّها رأت الشيطان -قال الأولاد- تأكّدنا الآن أنّها رأته.

- اخرسوا جميعاً! أنا مَن أراد تخويفها! -صرخ بيليا.

هزّتها تلك الصرخة: تنهّدت، وفتحت عينيها.

التزم سالڤاتوري صمته: كـان على دراية بكلّ شيء، لأنّ أمّـه أمرته بالذهاب إلى غرفته بينما كانت تدردش مع روزا. وقد سمع الصيحة، في الخارج، فأدرك حينذاك كلَّ شيء. وكان ساكتاً لأنّ الأستاذ علّمه أن يبقى كذلك، لكنّه فطن إلى أنّ المنديل الأبيض المطرَّز بحرف السين الأحمر كان منديله الذي نسيه على طاولة المطبخ. وضعه في جيبه، ثمّ أخرجه ثانيةً ورماه أمام روزا، بجانب الحجاب الأسود، كمَن يرمي خابيةَ ذهب.

*

ومنذ تلك الليلة بدأ السقم يدهم روزا أيضاً. هرعت مجدّداً إلى المرأة التي تحضِّر «دواء الفزع»، بلا جدوى، إذ إنّ الفزع كان ماثلاً في دمائها، يجعلها تجفل في نومها، وتنتفض مذعورةً من أيّ نأمة أو نسمة. وكانت الحمّى تراودها في كلّ يومٍ عند المساء، وكانت تنحل على مرأى العين مهمومةً من داءٍ باطنيّ يصعُب توصيفه. وكان يستبدّ بها هاجسٌ بوجوب فعل شيء ولا تقوى على فعله، أو البحث عن غرضٍ مفقود أو إعادة غرضٍ مسروق.

المَنديل! كان لا يفارقها البتّة، تحت وسادتها دائماً، تحلم بأنّها تراه يتضخّم ويتضخّم ليصير غطاءً، كالغطاء الذي تلتحفه، يُشعِرها أنّه السعير الذي

يضيّق عليها حتّى يكاد يخنقها.

قالت لسيّدتها إنّها أضاعت المنديل خلال جلبة الإغماء، وذلك ما يشبه الانتقام من بيليا.

وذات ليلة، أفاق السادة على صرخاتها. ظنّ زيبيديو للوهلة الأولى أنّ اللصوص دخلوا داره فوثب عن السرير عارياً، امتشق البندقيّة وركض على السلالم، فإذا بيليا يصيح مطمئناً أبويه:

- إنّها هذه المجنونة تحلم!

كان قد نهض هو الآخر، يتصبّب عرقاً من شعره المنتصب: لأنّ ندمه من إخافة الفتاة وكونه السبب في دائها كانا يعذّبان ضميره، وبدت له صرخاتها أصداءً لصيحته الشيطانيّة.

وما انفكّت الفتاة تصرخ. تَراكَض كلُّ مَن في الدار إلى غرفة الخادمة بسرعة، بمن فيهم العمّة آنّيا. وجدوها جالسةً على سريرها المتهالك والخفيض: منكمشةً على نفسها، تشدّ جديلتيها الطويلتين إلى الأسفل كأنّهما حبلان سوداوان.

وعندما أحاطها أسيادها أخذت تتأوّد وتهتف:

- يا لروع ما رأيت! يا لروع ما رأيت! يا لروعِ ما رأيت!

- لا بدّ أنّها رأت الجحيم -قال بيليا ساخراً منها، إذ ظنّ أنّها تؤدّي تمثيليّة.

جثت الفتاة على ركبتيها، وما زالت تشدّ جديلتيها اللتين وصلتا حتّى الأرض، وأجهشت بالبكاء.

- حلمتُ أنّي أموت -رَوَت عليهم بعد أن هدأت بانهمار دموعها ولمسات سيّدتها على كتفيها- القسُّ شخصيّاً قدم ليسمع اعترافي، وكان يريني ثلاث صور وقد رأيتُ في إحداها أرواح المطهر، وفي

الثانية الشيطان حاملاً على كتفيه عنقود عنب أسود، كلُّ حبّةٍ عبارةٌ عن آثم، لكنّي أخفقتُ في رؤية الثالثة، كانت مثل زجاج لمسته الشمس فما عاد بالمستطاع رؤيته وكنتُ خائفة منه. قال لي القسّ: إنّها صورة الله، إن أغمضتِ عينيكِ رأيتِها جيّداً. فأغمضتُ عينيّ، لكنّي لم أر سوى آثامي، وبدأتُ بالاعتراف. سرقتُ أسيادي، وتشفّيتُ في مصيبتهم، وشهّرتُ بهم، وعندما لم يسعني فعل المزيد قلتُ إنّهم لا يطعمونني أو إنّهم بخلاء ومتكبرون في حين أنّ العكس صحيح، كنتُ عدوّهم المنزليّ مع أنّي ادّعيتُ بأنّي خير خادمة وبذلك كذبتُ حتّى على نفسي. ولقد ذهبتُ لسرقة غرض من بيت ليا لإبطال السحر الذي دبَّرتُه بحقّ سيّدي الصغير. سرقتُ منديلاً، لكنّي لم أعطه لسيّدتي، وكان ذلك لؤماً منّي، إذ أردتُ أن أنتقم من نوبة الفزع التي سبّبها لي بيليا. كنتُ سعيدةً بالمرض الذي ألمَّ به لأنّه سبّب المرض الذي ألمَّ بي، ولأنّه سيّدي أيضاً. لكنّي لا أجد السلام، أخاف من الموت، أخاف أن يكشف الله حقيقتي لأسيادي في يوم الحساب.

كان الأسياد يصغون إليها، مذهولين وصامتين كما لو أنّهم في يوم الحساب حقّاً. أمّا بيليا فكان مستهزئاً بعض الشيء على الرغم من ارتباكه حين شعرت أمّه برغبةٍ في الجثُوّ على ركبتيها بجانب الخادمة والبكاء معها. أمّا زيبيديو فقد راوده إحساسٌ مشوّشٌ بالخوف: بدا له أنّ الخادمة مجنونة: لا يمكن إلّا للمجانين أداء مشهدٍ كهذا. بينما كانت العمّة آنّيا في شخصها الكبير تحت الظلام تبدو أنّها تحاسب الجميع كأنّها شبح الزمن.

تابعت روزا:

- قال لي القسُّ حينذاك: خطاياكِ ليست عظيمة، هي خطايا معتادة

لدى جميع البشر، إلّا أنّ أكبر خطاياكِ هو الادّعاء: أن توهمي الآخرين بما لستِ عليه. تعرَّي من ادّعائكِ وسيغفر لك الله، سيعينكِ لكي تصبحي أفضل، وبهذا يمنحكِ السلام. وحينذاك ستتمكّنين من رؤية صورة الله. ثمّ أضاف: لأنّ الحسابَ واقعٌ في الأرض كلَّ ساعة، والله ليس إله الأموات إنّما إله الأحياء. وعندئذٍ أخذتُ في الصراخ لكي تهرعوا إليّ وأخبركم بكلّ شيء.

تنفّست الصعداء ثمّ انحنت إلى الأرض وقبّلتها. باتت حركاتها متّزنة وهادئة وواعية: نهضت، أرسلت جديلتيها إلى الخلف، قبّلت يد سيّدتها. وإذ طأطأت رأسها وأغمضت عينيها، حاول بيليا أن يمازحها.

- وهل ترين الله الآن؟

لكنّ والده دفعه وسحب بشدّةٍ يدَهُ التي كانت روزا تقبّلها.

*

ذُهِل زيبيديو بذلك المشهد كثيراً. لم يكن يغالي في تديُّنه إطلاقاً، لكنّه كان نزيهاً ومتفاخراً باستقامته، ويؤمن بالخرافة: ذلك المعتقد الريفيّ الشعبيّ الذي يحلّ مكان الدين الحقيقيّ في معظم الأحيان.

كان يزداد اقتناعاً، يوماً بعد يوم، أنّ الله يعاقبه على استيلائه الجائر على أملاك شقيقه، إلّا أنّه لم يكن ليتنازل عنها لهذا السبب تحديداً، إذ إنّه على يقين بأنّ الناس بدلاً من أن تستحسن مروءته ستجعل منه أضحوكةً. ومن ناحيةٍ أخرى كانت أعماله تتدهور، فمحصول الفول والحنطة الذي يُعدُّ من أضخم أرباحه كان شحيحاً ورديء الجودة. وقد نفق جُلُّ الماشية التي ورثها عن أخيه لإصابتها بالقرحة المعويّة. صحيحٌ أنّ بعض المُلّاك الآخرين تضرّرت مواشيهم أيضاً، لكنّ هذا لا يُسْليه. وفي

المحصّلة لا يؤرّقه شيءٌ أكثر من مرض ابنه، الجرح الذي لا يندمل أبداً. كان خُراج القيح غالباً ما يتكرّر، ومعه ضرورة إجراء عمليّة جديدة، وفي الأثناء تغدو طباع بيليا أغرب، وتتناوب عليه أعراضُ الخدر واللامبالاة والعصبيّة والعدائيّة. ودائماً ما فكّر أهله بالمجيء ببروفيسور أو اقتياد بيليا إليه، لكنّهم كانوا يهابون جانب الطبيب. قد يعتبرها الطبيبُ إهانةً ويصبح عدوّاً لدوداً، إذ كان يبدي سخطه أساساً كلّما تغافلوا عن تنفيذ توجيهاته. وهكذا بات اصطحاب بيليا إلى البحر أمراً حتميّاً، فمن هناك بوسعهم التسلّل إلى المدينة لاستشارة البروفيسور من دون أن يعرف بذلك أحد.

راسل زيبيديو صديقاً له يمتلك منزلاً على شاطئ البحر، وسرعان ما عرض الصديق ضيافته، على أن يتدبّر آل باركاي شأنهم في غرفتين ومطبخ لأنّ عائلة المضيف تشغل بقيّة الغرف.

انفرجت أسارير بيليا لفكرة تغيير الأجواء، كذلك الخادمة كانت تضحك بمفردها من الفرح، لأنّها لم ترَ البحر من قبل وكانت تتخيّله سطحاً أملس ومؤطّراً مثل المرآة.

أمّا أمّه فكان هاجس المغادرة يولّد لديها إحساساً بالكآبة، بدت لها الرحلة طويلةً لا تنتهي ومحفوفة بالمخاطر والمصاعب، عدا عن أنّ البحر يشعرها بالرهبة، وكانت تخشى أن يغرق فيه ابنها، لكنّها مستعدّة من أجل هذا بالضبط أن تصحبه إلى آخِر بقاع الأرض لعلّها تبقى قريبة منه وتعتني به وتحميه من أيّ أذى.

ذهب زيبيديو لملاقاة ليا في المساء ما قبل الانطلاق.

وجد الباب والنوافذ موصدة: ليا تعمل بجانب القنديل، وسالفاتوري يقرأ جريدةً هذه المرّة باهتمام شديد.

اعتاد زيارات زيبيديو، وكان يعلم أنّه يأتي أمّه بالمال لذا كان يرى

وجوده طبيعيّاً، فضلاً عن كونه في قرارة نفسه يأمل أن يعيد إليه عمُّه أملاك أبيه بطريقةٍ أو بأخـرى. لذا كفّ عن الحكم عليـه سلباً مع أنّه ما انفكّ ينظر إليه عبْر حجابٍ أسود.

جلس زيبيديو في مكانه المعتاد، من دون أن ينتظر دعوة من أحد. نظر إلى الجريدة وسأل عن الأنباء التي تبثّها.

- توصَّلوا إلى السلام أخيراً -ردّت ليا- حان وقته.

- أجل، حان الوقت لكي يستعيد العالم استقراره -قال وبدا له أنّه يتحدّث رغماً عنه- ألا ترين أنّ الطقس صار مجنوناً هو الآخر؟ ففي الربيع حلَّ بنا قيظٌ خانق، والآن برد الجوُّ بعد تلك الريح العاتية في الأيّام الماضية. إنّ الشياطين تسرحِ وتمرح في الدنيا.

- مَن كان داخل بيته ما شغل بالاً -قالت وكان المعنى متخفّياً في قلب كلماتها- فالعامل الفقير لا يرى في الطقس أيَّ تغيُّر، أي إنّه سيّئٌ دوماً. -أضافت بابتسامةٍ طفيفة كشفت عن أسنانها الصغيرة كأسنان النمس- لحسن الحظّ أنّنا ننتظر الطقس الجميل دوماً.

ما زال زيبيديو يشعر بأنّ كلماتها تعضّه فأحسَّ أنّه يكرهها. لولا الطفل لخنقها، لكنّه هناك دوماً، مطمئنّاً متأهّباً ومستنيراً مثل شعلة القنديل. التفت نحوه:

- حسناً، وما الذي سيُقدِمُ عليه الألمان الملاعين الآن؟ وأخيراً سيلتزمون حدود ديارهم، ولحسن الحظّ أنّهم سيعودون إلى العمل، وصناعة الإبر ذات الرؤوس الممتازة، والحبر الفاخر من أجلك يا سالڤاتوري، وسينتظرون الطقس الجميل هم أيضاً.

أجاب سالڤاتوري بنبرةٍ جادّة:

- بل إنّهم سيشعلون الثورة، وسينقلون شرارتها إلى العالم بأسره.

- لا ينقصنا سوى هذا! وما رأي أستاذك؟

- لم أعد أراه لأنّني أُعفيتُ من الامتحانات كلّها، ولم أعد أتردّد إلى المدرسة منذ عيد القدّيس يوحنّا.

- خذ إذن، واشترِ الكرز.

أخرج من جيب صدريّته، حيث يحفظ النقود بعشوائيّة، ورقةً من فئة الخمسين ليرة وأعطاها للولد. نظر سالڤاتوري إلى أمّه ثمّ أخذ النقود بعد أن أشارتْ بموافقتها، لكنّه وضعها على الطاولة ليشكِّل منها زاويةً مع القنديل.

لاحظ زيبيديو أنّ تلك اليد هزيلة وبيضاء، ولم يجرؤ على القول إنّه وعائلته سيذهبون إلى البحر في اليوم التالي، إذ أحسّ أنّ سالڤاتوري في حاجةٍ إلى تغيير الأجواء هو الآخَر.

- ألم يردْكِ شيء من زوجكِ؟

كان يبدو أنّها تترقّب ذلك السؤال، فها هي تكفّ عن الخياطة، وتعدّل جلستها وتسلّط أنظارها على عينيه.

- بلى، راسلني هذا اليوم بالضبط. لم أجب عن رسالته الماضية، ولكنْ يبدو أنّ المعلّم ميكيلي الحدّاد قد راسله: ما الذي كتبه إليه، لا أدري. إلّا أنّ رسالة بييترو باولو الأخيرة في منتهى الغرابة. لا يمكنك أن تقرأها لأنّني أعطيتُها لشخصٍ آخر وطلبتُ مشورته. إنّ رسالة بييترو باولو -استأنفت وهي تهجّئ ألفاظها- مغمورةٌ بنور الله. يقول إنّه يشعر بقواه تخور يوماً بعد يوم، وإنّه يخشى أن يموت عمّا قريب. ويطلب منّي المغفرة عن كلّ شيء: يقول إنّه عرف أنّ الولد حصل على علامات ممتازة وأنّه سعيدٌ بهذا، ثمّ يختتم رسالته هكذا: إمّا أنّي سأموت قريباً وأترك كلّ ميراثي للولد، أو أنّني سأعيش

وسأعينه على تكاليف الدراسة إن كنتِ تريدين.

شعر زيبيديو بخفقان قلبه: ارتياحٌ؟ عارٌ؟ غبطةٌ بحقّ بييترو باولو على مكرمته؟ كلّ تلك الأشياء معاً، إضافةً إلى شكّه بأنّ ليا تكذب عليه لكي تختبره. ولكنْ كلّا، ليس من المعقول أن تكذب بحضور ابنها.

- لمن أعطيتِ الرسالة؟ هل لي أن أعرف؟ -سألها وفي نفسه بعضُ الغيرة.

- للقسّ. إنّه مريض. يتقيّأ دماً. وما كنتُ لأثق فيه لولا أنّه موشكٌ على الموت، وسأفعل ما ينصحني به. سأذهب لإعانة بييترو باولو إن كانت هذه نصيحته.

تذكّر زيبيديو حلم روزا وانتابته رغبة عارمة في الذهاب إلى القسّ هو أيضاً. ورغم ذلك راح يغتابه:

- منذ مئة عام وهو موشكٌ على الموت ولا يحسم أمره أبداً. إنّه متعلّقٌ بالمال إلى درجةٍ لا يستطيع فيها الرحيل. لا بدّ لكِ أن تعرفي ما الذي يقوله الطبيب عنه.

- ومَن يحاسب الطبيب؟ -ردّت بحدّة- ستعرفه أنت على حقيقته ذات يوم.

- أوه، أنا حاسبتُه من الأساس! لقد خُلِقنا في هذه الدنيا من أجل هذا: من أجل أن يحاسب أحدنا الآخر مثلما يحدث في يوم الحساب.

- سيحاسبنا الله حينئذ.

- إنّ الله يحاسبنا كلَّ يوم -قال مردِّداً الكلمات التي وردت في حلم الخادمة- لأنّه ليس إله الأموات بل إله الأحياء.

وإذ قال تلك الكلمات استمدّ الشجاعة ليضيف إليها كأنّه يغيّر الموضوع:

- غداً سنذهب إلى البحر. بيليا في حاجة إليه، وسترافقه أمّه لأنّها تخشى أن يصيبه مكروه. سأذهب لمرافقتهما. ثمّ سأعود إلى هنا، لا يمكنني إهمال أعمالي، التي تتردّى حالياً. الشؤم يطغى على كلّ شيء في هذا العام. حتّى الخدم أصبحوا كما لو أنّ الشيطان مَسَّهم: لا رغبة لديهم في العمل، ويطالبون بمضاعفة الأجور. الشقيقان التوأم اللذان يعملان في أرضي، ما عادا مثل زمان، إذ كان وسواس النزاهة والكدح في العمل عنوانهما، أمّا الآن فيستلقيان تحت الظلال ويكيلان اللعنات إن أبديتُ ملاحظةً عليهما.

وكاد يروي كيف أعفاهما من سداد الدَّيْن تجاه المرحوم بازيليو، لكنّه تذكّر السبب وخجل من نفسه.

ومن جهةٍ أخرى لم يتمكّن من مواصلة كلامه لأنّهم سمعوا طرقاً على الباب. لم يحدث قطّ أنّ أحداً قدم خلال زياراته، فشكَّ أنّ الشخص الذي على الباب مبعوثٌ من عائلته للتجسّس عليه. ماذا عليه أن يفعل؟ حتّى ليا وسالفاتوري تبادلا نظرةً حائرة، وتردّدا في استقبال الطارق حرصاً على خصوصيّة زيبيديو. فقال لهما:

- لِمَ لا تفتحان؟

تحرّك سالفاتوري.

«ماذا لو وجدوني هنا؟ -تساءل- أفلا يحقّ لي أن أزور يتيم شقيقي؟»

وما إن فتح سالفاتوري الباب حتّى استبدّت بالثلاثة رعشةُ مفاجأة تكاد تماثل الرعب: شبحٌ أسود يدخل، يداه بيضاوان لكأنّهما مشعّتان.

إنّه القسّ.

تقدّم، وجلس في المكان الذي أشارت إليه ليا وهي تصدح بالترحيب، ولم يُثِرْ وجودُ زيبيديو استغرابه.

اتّكأ سالڤاتوري إلى الطاولة، يركّز أنظاره في الرجل، وما عاد يحيد عينيه عنه: لـم يكن ذلك الوجه جميلاً، بتلك البشـرة الصفيراء المتقعة والمضمومة بالعظام كأنّها قماشةٌ ملتصقة عليها، وعيناه بيضاوان، كما لو أنّ ألوانهما بهتت من فرط الاستخدام. لكنّه كان يختزن تعبيراً غامضاً، عميقاً، كتعابير الميت الذي بُعِثَ إلى الحياة وما كان بذلك سعيداً فيجاهد في تذكُّر حياته على الأرض، حياته التي انقضت منذ قرون.

لم يتكلّم إلّا عندما جلست ليا بجانب قدميه أرضاً إكراماً له وقالت بلهجةٍ متواضعة:

- كنتُ أتحدّث مع زيبيديو عن رسالة بييترو باولو، وعن النصيحة التي طلبتُها من سيادتكم. ولكن لماذا أتعبتَ نفسك بالمجيء، سيادتكم؟ كنتُ سأعود إليكم غداً أو بعد حين، فالأمر ليس مستعجلاً.

- ليس مستعجلاً بالنسبة إليكِ، أمّا إليَّ فبلى. -أجاب، بصوته المبحوح، حتّى إنّ سالڤاتوري اضطرّ إلى الدنوّ بمرفقه على الطاولة ليسمعه بشكلٍ أفضل.

قرّب زيبيديو جذعه أيضاً: بدا له أنّه أطرش أو أنّه يحلم، ما يشبه الحلم الذي تراءى للخادمة.

قال القسّ:

- لقد التجأتِ إليّ تحديداً لأنّني أوشك على الرحيل. وقلتِ في نفسكِ: لم يعد لديه مَصالحُ في الأرض لذا فإنّ نصيحته ستكون سليمة.

لوّحت ليا بما ينمّ عن إنكارها، لكنّها خفضَت بصرها خوفاً من أن يقرأ أفكارها.

- لا تنكري. فمن الصواب أن يكون الأمر كذلك. فالإنسان وهو على قيد الحياة يتشبّث بالأرض مثل الشجرة، مثل أيّ شيء طبيعيّ،

ويرى ويعمل من خلال أفكارٍ مخبّأة مثل الجذور تحت الأرض. لكنّي لا أقول إنّكِ التجأتِ إليّ لهذا السبب خصوصاً، والذي تتجلّى فيه رجاحة عقلك في المحصّلة. بل لقد فكّرتِ في نفسكِ أيضاً: القسّ مثقّفٌ، يفقه في الكتب المقدّسة ويعرف الحقائق التي يكشفها الله، فهو قادرٌ على إسداء النصح لي.

- صحيح، صحيح! -هتفت وهي ترفع عينيها من جديد.

- ولكنْ ما هذه القوانين وهذه الحقائق في نهاية المطاف؟ قوانين وحقائق قالها البشر وكتبوها. الرسل كانوا بشراً، سوى أنّهم عاشوا مع المسيح الذي هو ابن الإنسان أيضاً، وكانوا يردّدون كلماته مثلما كان يسمعها من الله. وإنّ الله الحقّ والعظيم، لم يره أحدٌ على الأرض إطلاقاً. كان البطاركة أنفسهم ينصتون إلى كلامه من خلال السحاب وعن طريق الملائكة المنزَّلين منه، ومع ذلك فكلّنا نعرفه، وكلّنا نسمع كلامه من دون أن نجيد علم الرسل. أنا وأنتِ وزيبيديو كلّنا نسمعه، كلّنا نراه.

نظر إليه الثلاثة متلهّفين وفغروا أفواههم كأنّهم يستنشقون كلماته.

- إنّ الله في دواخلنا، إنّه ما نسمّيه الضمير، باختصار. يكفي أن نصغي إلى ضمائرنا لكي نسمع صوت الله.

خابت آمال الثلاثة.

لا بل إنّ زيبيديو حنى رأسه لأنّه كان يعرف أنّ التفسير سيؤول إلى ذلك المآل. إذ كان الراهب في المحصّلة يكرّر أشياء سبق أن قالها مراراً في عظاته في الكنيسة.

- هلّا سمحتَ لي بسؤال -قال زيبيديو باستحياء- عندما تقول إنّ الله هو إله الأحياء فقط، ما الذي تقصده بهذا؟ أنّ الأحياء، حتّى بعد

موتهم، هم أولئك الذين لم يقترفوا إثماً؟

- لا يوجد إنسان في الأرض لم يقترف إثماً -أجاب الراهب- وإلّا لكان جميعنا أمواتاً في عين الربّ. إنّما أقصد بالأحياء أولئك الذين يحيون على الأرض في الواقع، ويسلكون سلوكاً حميداً، ويتفادون الإثم قدر استطاعتهم، لا لشيء سوى لأنّ هذه هي الحياة الحقيقيّة للروح.

- وبعد الموت؟ -ألحَّ زيبيديو.

- هذا أمرٌ يطول شرحه -قال القسّ محاولاً تجنُّب الخوض في الموضوع العويص- إنّنا لا نشهد الرؤيا الحقّ إلّا بعد أن نموت بالضبط. ما يهمّ هو أن نتصرّف بحيث أن ندرك آية مرقس حرفيّاً، وهي أنّ الله ليس إله الأموات، بل هو إله الأحياء، وأن نعمل كما لو أنّنا في حضرة الذات الإلهيّة حقّاً. وإنّ الله معنا فعلاً، إنّه في دواخلنا.

-ثم استرسل قائلاً: من الغريب أنّ كلَّ واحدٍ منّا يستنصح برأي الآخر، كما لو أنّنا نحاول الانعتاق من المسؤوليّة أمام الناس وأمام أنفسنا. أمّا لو كنّا نطلب النصح من ذواتنا، من أعماق ضميرنا، فإنّنا نستمدّه من الله نفسه، ولن نخطئ أبداً وسنصنع الخير لنا وللآخرين دائماً. في حالتكِ يا ليا، كيف لي أن أنصحكِ إن كنتُ جاهلاً بحقيقة عواطفكِ؟ أو بالأحرى، قد أتكهّن عواطفكِ، بل فلنقل إنّني أعرفها، ولكنّي لا أستطيع إكراهها بأن أنصحكِ بفعل شيءٍ ما من دون غيره.

فقالت ليا وهي تجابه بل تبحث عن نظرته الغامضة:

- ضميري ضعيف، عليك أن تساعدني لسماعه. سيادتكم تستطيع إنْ أردت؟

- ليس ضميرك هو الضعيف، إنّما أنتِ، إذ لا تبذلين جهداً للإنصات إليه. بكلّ حال، ما الذي يدفعكِ للعودة إلى زوجكِ؟ أهي من أجل المكاسب التي ستجنينها؟

- أجل، هذا أيضاً، ولكن لمصلحة سالڤاتوري أكثر ممّا هي لمصلحتي.

- هي عودةٌ من أجلِ المكاسب المادّيّة بكلّ الأحوال، لأنّكِ تفكّرين أن تجعلي ابنكِ رجلاً ثريّاً. فهل تظنّين أنّ الثراء الحقيقيّ، أقصد الثراء الدنيويّ، هو المكتَسَبُ عن طريق الآخرين؟ إنّ الثراء الحقيقيّ هو الذي يجب علينا اكتسابه بعرقنا، وجهودنا الذاتيّة، لا بالبحث عن عونٍ من الغير. غالباً ما يدمّر الآباء أبناءهم بتأمين الثراء لهم في حين يجدر بهم وحدهم الكدُّ لنيله.

كان زيبيديو يفكّر في ابنه بيليا بحزنٍ عارم، وبدت له كلّ كلمة يقولها القسّ موجّهةً إليه.

- لا شيء إذن -قالت ليا مسلِّمةً أمرها للرفض.

- أترين؟ -قال القسّ- إنّ نصيحتي قد تضرّ بكِ. ولكن اسمعيني جيّداً: هل في رغبتكِ العودة إلى زوجكِ بعضٌ من الحبّ؟ أقصد المحبّة، لا الحبّ الجسديّ.

- كلّا، لا يمكنني أن أحبّه. فلقد آذيتُه أكثر ممّا يسعني أن أُكِنَّ له المحبّة.

- هذا هو الكلام الحسن! فكما ترين، لَمْ تقولي «لا أحبّه لأنّه آذاني»، إنّما قلتِ «لا أحبّه لأنّني آذيتُه». هنا يكمن عقابكِ. إنّ الأذى الذي تسبّبتِ فيه يحرمك من أعظم هبة في الحياة، تلك التي تجعلنا سعداء ومسرورين، يحرمكِ ملكوت الربّ في الدنيا، يحرمكِ من الحبّ.

- لا يمكن السيطرة على الحبّ.

- غير صحيح، هذه أكذوبةٌ مطروقة. إنّما أنتِ يا ليا، مثل السواد

الأعظم من البشر، مثل قارب ممتلئ بالثقّالات ويظنّ أنّها ستساعده على الإبحار الأمثل، ولقد ألقَيتِ جزءاً من هذه الثقّالات في البحر، فارمي ما تبقّى، فكلّما كان القارب خفيفاً طفا على الموج على نحو أفضل. لماذا حقدتِ على زوجكِ؟ لأنّه كان عقبةً تعترض طريقكِ إلى الخطيئة، وها هي خطيئتكِ تعود وبالاً عليكِ. إذ إنّ العقاب الحقيقيّ على خطايانا ينزل بنا في هذه الدنيا نفسها.

- صحيح -تدخّلَ زيبيديو ولم يشأ ذلك. ولكنْ لا أحد اكترث به.

- اسمعيني جيّداً -قال القسّ- ثمّة شعورٌ آخر يدفعكِ نحو بييترو باولو: الشفقة عليه بوصفه إنساناً. أليس كذلك؟

- بلى، إنّه كذلك! أشعر بالشفقة وأودّ أن أساعده مثلما نساعد المتسوّل الذي يسقط أرضاً على باب بيتنا.

- فاذهبي إذن! -قال وهو ينهض- فإنّ الله قد استيقظ في وجدانكِ.

لكنّ المرأة لم تشأ أن يغادر، ما زالت متعطّشةً لكلمته. جثت على ركبتيها، وأمسكت يده وأخذت تقبّلها كما لو أنّها ذخيرة قدّيس. سوى أنّه سارع إلى سحبها، انزلقت يده الباردة من يدها كأنّها تُستَلُّ من قفّازٍ دافئ.

- دعيها، دعيها، يا ليا! لا تلمسي ابنكِ قبل أن تغسلي يديكِ، لأنّ مرضي معدٍ. وحاولي أن تسافري عاجلاً، لعلّ ابنكِ الذي أراه سقيماً، يتنعّم بأنفاس البحر. وداعاً.

وانصرف من دون توديعٍ آخر.

*

كانت عائلة باركاي على سفرٍ صوب البحر.

وَدّت زوجة زيبيديو أن تسافرَ بكلّ سرورٍ في العربة التي تشحن

الأمتعة، مثلما كانت العادة في الماضي حين كان الناس أكثر جهلاً وسعادة، إلّا أنّهم كانوا يسافرون على متن قطار، في الدرجة الثالثة رغم ثرائهم.

وكان القطار مكتظّاً، تنتأ رؤوس الجنود كالعناقيد من كلّ نوافذه. جنودٌ عائدون مسرَّحين بعد انتهاء الحرب، جميعهم يضحكون، ويتصايحون فرحاً، مع أنّ صيحاتهم تختزن قدْراً من الضراوة، كما لو أنّهم لا يزالون في وضعيّة الهجوم، يقتلون ويُقتَلون.

وكانت المقصورة التي شغلتها عائلة باركاي تغصّ بالعساكر أيضاً. تفوح الرائحة الكريهة منهم جميعاً كأنّهم حيوانات بريّة، وكانوا يتكوّمون على النافذة عند كلّ محطّة، فتتضايق منهم روزا والسيّدة اللتان جلستا على مقاعد الزاوية. وكانت روزا تستمتع بذلك، تضحك معهم وتشعر بالمتعة من التّماس بهم، بخلاف السيّدة التي استفحل شعورها بالغمّ.

لم تكن مستاءة من رفقة أولئك الشبّان الطيّبين، فهي معتادة على النتن البرّيّ مادام خدمها وزيبيديو نفسه لا يتضوّعون عبير الأزهار. غير أنّ امتزاج القيظ بالضيق بهدير محرّك القطار، ولَّدَ عندها إحساساً عميقاً بالغثيان. ناهيك بأنّها فكّرت في عربة الأمتعة بقلقٍ شديد، وشعرت أنّ شيئاً ما من عائلتها ودارها ضاع فـي الأرض تحتَ رحمة كلّ اللصوص وقطّاع الطرق، كما إنَّها ما فتئت تهجس بالخشية من أن يدخل اللصوص دارها، حيث ظلّت العجوز لتحرسها وهي العاجزة مثل فزّاعة لا تخيف إلّا الطيور.

وكان بيليا جالساً إلى يسراها، وزيبيديو بجانب الخادمة. ارتاحت بوجودهم مجتمعين بقربها، لكنّها كانت تصرخ كلّما نزل الرجال في محطّة خوفاً من أنّ الوقت لن يسعفهم لركوب القطار ثانيةً.

أمّا زيبيديو فكان مبتهجاً كالجنود العائدين من الحرب تقريباً. شعر أنّه

تخلّص أخيراً من كابوسه ما دام أنّ ليا ستسافر، وأنّ سالڤاتوري سيذهب إلى البحر هو أيضاً، وأنّ مستقبله مضمون.

وكان ينزل في كلّ محطّة، ويدعو العساكر لشرب أصناف من المشروبات الروحيّة، وينفق بإسرافٍ مجنون.

- يبدو أنّ السيّد في حفلة -قالت روزا- انظري إليه، سيدعو جنود المقصورات الأخرى أيضاً.

- إنّهم عائدون من الحرب ويستحقّون -قالت السيّدة رغم امتعاضها من ذلك الهدر.

- ولكنْ انظري إليه! سيدعو عمّال المحطّة كذلك، ويقدِّم المشروب للفتى أيضاً.

تَعَنَّتِ السيّدةُ وأطلّت من النافذة. رأت ما بعد الحواجز المغلقة للطريق الريفيّ المتقاطع مع السكّة الحديدية كثيراً من العربات المكسوّة بستائر الخيش أو بالشراشف الخفيفة فقط، والتي تنتأ من كواها رؤوس نساء وأطفال، أناسٌ فقراء ذاهبون إلى البحر، فانتابها حسدٌ كبير.

- كأنّك حصلتَ على مالِكَ سرقةً يا سيّدي -قالت روزا لسيّدها حين صعد إلى القطار- فأنت تبذّره من دون أن تُحصيَهُ.

- مَن لديه فلينفق. اِلتَفِتي لشؤونكِ. -صرخ حانقاً، وتغيّر مزاجه ربّما.

وبالفعل، لم يعد ينزل من القطار إلى أن وصلوا إلى الضيعة حيث يسكن صديقه. ولكنْ للوصول من البلدة إلى البحر مسافةٌ طويلة من الطريق، فتحسّرت زوجة زيبيديو مرّة أخرى على أيّام العربة والسفر على الطريقة القديمةِ.

ما الذي يحدث لهذه العائلة الطيّبة؟ هل المرأة تحلم أم إنّها ما زالت تحت تأثير دوخة القطار التي لم تعد تُشعِرها بالعسر إنّما بالهذيان العذب؟

تتخيّل أنّها ترى دارها منقولةً من قِبَلِ الملائكة، إلى ما بين الأشجار المغبرة المحيطة بتلك المحطّة الصغيرة: إنّها دارَها، أجل، بسلالها وجرابها وقِدْرها النحاسيّ المخصّص لطهي المكرونة، وخزنة البياضات، وفراشها الأبيض والسماويّ، وإبريق القهوة صديق روحها، بل وحتّى الكلب هناك يعدو احتفاءً بأصحابه أسرع من القطار.

تمسح المرأة الدموع من عينيها الجافّتين. كلّا، لم يرحلِ الشعرُ عن الأرض بعد. لا تهمّ الجودةُ، طالما أنّ الخادم الموفد بعربة الأمتعة خطرت له فكرةٌ سديدةٌ بالتوقّف في المحطّة، بحيث يتسنّى للسيّدة أن تكمل الرحلة إلى البحر على متن العربة.

جلست على الفرش وخُيِّل إليها أنّها عادت طفلةً عندما كانت تذهب إلى الاحتفالات الريفيّة على شاطئ البحر، وكان كلُّ شيء جميلاً لأنّ كلَّ شيء كان بسيطاً.

ما زالت الأرضُ البراحُ على حالها، وكذلك الصخورُ الغرائبيّة، وشجر السنديان المنعزل الذي لا يرى إلّا التفاف ظلاله الكبيرة وانبساطها وانكفائها، لكأنّها مثل المفكّرين الذين احدودبت ظهورهم من فرط دراستهم للعبة الأيّام الماضية والعابثة. وما زالت القطعان في المراعي: الأغنام المنحنية لتنهل ما بين أسل الجدول النقيّ والصافي والمحدّد بين الخضرة والزرقة مثلما يظهر في اللوحات التقليديّة: ما زالت الجواميس الصبورة تجرّ العربة، والخادم الذي أصبح طيّباً ليومٍ واحدٍ على الأقلّ لا يطلب سوى فرحة عمله، ونسائمُ البحر النقيّة تحتضن كلَّ الأشياء.

وها هو البحر. كلّما اقتربوا منه ظهر في البدء مثل خطّ فضّيّ يتخلّل أجمات البراح، ثمّ اتّسع أكثر فأكثر واستطال حتّى بلغ السماء. كانت الخادمة جالسة هي الأخرى على العربة، ترنو إلى البحر مشدوهةً وقد

استولى عليها شعورٌ بالرهبة والخوف.

- هل تريدونني أن أنزلَ في هذا؟ أنزل فيه بملابسي؟ كي لا أَخرُجَ منه حيّةً، صحيح؟ كلّا وروحي لن أمسَّ البحر أبداً.

- ومَن يجبركِ على ذلك؟ -قال الخادم بنبرة هادئة -تظنّين أنّ البحر لا همَّ له سوى انتظار نزولكِ فيه!

- لن أنزل فيه، لن أنزل! -كانت تُردّد في نفسها، لمجرّد النيل ممّا يجتاحها من توقٍ كبيرٍ للسباحة في البحر.

واحمرّت خجلاً وحجبت وجهها بذراعها عندما رأت الرجالَ شبه العراة يمشون على الشطّ ويتراشقون الماء فيما بينهم.

كان منتصف النهار أو يكاد، والمستجمّون على الشاطئ الصخريّ جميعاً، والنساء يسبحن بعيداً عن الرجال. وثمّة بيتٌ أبيض ذو نوافذ صغيرة، يتمايز على زرقة البحر، وكلُّ غرفةٍ فيه تشغلها عوائلُ بأسرها.

وفي البعيد تَبْيَضُّ ثكنة الجمارك ما بين التضاريس، فيما كان المنزل الصغير ذو اللون الحجريّ كأنّه بارزٌ من البحر يتراءى بين الثكنة ومقام المستجمّين.

ذاك منزل صديق زيبيديو، اتّجهت نحوه العربةُ التي تقلّ المرأتين ببطء على امتداد الدرب المحاذي للبحر، ما بين صياح الخادم الذي يهيّج الجواميس وهتاف روزا:

- هل سنذهب للنزول هناك؟ هل سنذهب للنزول هناك؟ وسط البحر؟ ماذا لو هبّت العاصفة وغرقنا جميعاً داخل البيت مثل الكتاكيت في القفص! الرحمة، الرحمة!

كانت سيّدتها مرتبكةً أيضاً، لكنّها التزمت الصمت. عدّلت حجابها حول وجهها وربطت صدارها، إذ خالت أنّها تنزل ضيفةً عند أشرافٍ

أثرياء.

قَدِم المضيف لاستقبالهم، بتعبيرٍ يمزج المكر بالبهجة بالطيبة على وجهه الأحمر كالتفّاح.

- لو كنتُ أعلم أنّ الحظَّ سيسعدني في استقبال عائلتكِ، يا ماريّا كاتيرينا باركاي، لشيّدتُ قصراً عوضاً عن كوخي التالف هذا. ولكن سترين، إن شاء الله، في العام القادم ستلقين حفاوةً أفضل من هذه.

ورغم أنّها شكرته على ذلك، فكّرت أنّها في العام القادم، إن شاء الله، لن تفارق دارها.

اجتمعت عائلة المضيف أمام المنزل، وكانت مكوّنةً من عدد كبير من النساء وما لا يحصى من الفتية والأولاد، واحتفوا هم أيضاً بوصول الضيوف.

يبدو أنّ المنزل مبنيٌّ من الأحجار التي يغصّ بها الشاطئ: فالبحر في لحظات غضبه العاتي، يصل إلى الباب وسرعان ما ينسحب كأنّه لا يشرّفه ولوجُ منزلٍ وضيعٍ ومأمنٍ بشريٍّ كهذا. وكان أمامه صفٌّ من الصخور التي تحدّد ما يشبه الفِناء البحريّ، إذ ينبغي للقوارب أن تتجاوزه، ومن الممنوع السباحة في ذلك الجزء من البحر إلّا لسكّان المنزل كما لو أنّه ملكهم حصراً.

قدّموا القهوة للضيوف ثمّ دعوهم إلى الغداء: غداءٍ باذخٍ ووفيرٍ على الرغم من زمن المجاعة.

رُتِّبَتِ المائدة في صالة الجلوس وكان البحر يعصف بالستارة الزرقاء على الباب المفتوح، فينعكس تراقصها على الجدران العارية، وتمتزج همْهمتها بأصوات بكاء الأولاد وصياحهم.

استعاد زيبيديو مزاجه الحسن قليلاً، إذ شعر أنّ وجوده مع عائلته إلى تلك المائدة التي بدت مباركة من الربّ دلالةَ خير. كما إنّ لا أحد هنا يذكِّره بآلامه، ناهيك بأنّه جلب إلى صديقه هديّةً هي قنّينة نبيذ صغيرة، وكان صديقه يسكب منها كأنّها نافورة على شرف الضيوف.

- لو أنّك أتيتَني بسيف الجنرال ما كنتَ لتسعدني بهديّة أفضل من هذه يا زيبيديو باركاي. فعندنا النبيذ سيّئ الآن. تذوَّقه. بين نبيذك ونبيذي فرقُ ما بين الماء والنار. ثمّ إنّ الحرمانَ من النبيذ الفاخر أسوأ عند الرجل من سحب الدماء من شرايينه. اشرب، اشرب يا زيبيديو.

وكان زيبيديو يشرب، مع أنّه ممتنعٌ عن الكحول تقريباً، وكان ينظر عبْرَ الكأس الملآن إلى ابنه بيليا فيبدو له أنّه يستردّ رونقه.

وقد ارتفعت معنويّات والدته أيضاً، مع أنّها لم ترتشف قطرة نبيذ. وكانت زوجة المضيف، الجالسة بجانبها، والتي تشبهها إلى حدٍّ بعيد، مفلطحة مثلها، وصدرها الكبير محمولٌ بخيطٍ حرير من جانبيها بصدارٍ مخفيّ، ووجهها الناصع يذكّر بصفاء القمر، كانت توشوشها وتصارحها بالضيق الذي يراودها هي الأخرى كلّما وجبت عليها مغادرة بيتها الذي في القرية.

- لكنّنا نضطرّ إلى إغفال أنفسنا كرامةً لسعادة أبنائنا وأحفادنا. فماذا نكون نحن لولاهم؟ حاولتُ ذات مرّة أن أتركهم بمفردهم، وصدِّقيني: في المساء نفسه عدتُ من هنا وحدي مثل القطّ المبيع الذي يرجع إلى بيته حالما تسنح له فرصة الفرار.

- ألم تقع مصائب هنا؟ -سألتها الأخرى هامسةً.

- لم يقع شيءٌ علينا بفضل الله، لكنّها حلّت بآخرين، أجل. ففي العام

الماضي غرق أجنبيٌّ لأنّه نزل للسباحة بعد أن تناول الطعام مباشرةً.

- بيليا -قالت ماريّا كاتيرينا باركاي وقد التفتت مذعورةً نحو ابنها -هل سمعت؟ لا ينبغي السباحة أبداً بعد تناول الطعام، فخطورة الغرق قائمة.

- أجل، أعرف -أجاب وقد شعر بالخزي، إذ انتبه أنّ الفتية الآخرين يضحكون على خوف والدته.

- هل تعرف السباحة أنت؟ -سأله أكبرهم.

- أجل.

- وأين تعلّمت؟

- في النهر.

- لكنّ نهرنا غير صالح للسباحة حتّى بالنسبة إلى الأسماك -قالت روزا هازئةً به.

- أنا تعلّمتُ في نهرٍ آخر، أكبر، نهر الآر.

لم تجرؤ الخادمة أن تكذّبه. قال الفتى الكبير:

- ستعلّمنا السباحة إذن، لأنّنا نحن كذلك لا نجيدها.

احمرّ وجه بيليا، لكنّه وجد طريقةً ينقذ بها نفسه، قال بحزنٍ كما لو أنّ الأمر حقيقة:

- منعني الطبيب من السباحة، كي لا أضرّ يدي.

- ستشفى يدك سريعاً -شجّعته قريبة المضيف التي كانت ترضِّع طفلها لتكشف عن براءة العذراء المتمثّلة في ثديها ذي اللون الكهرمانيّ والمطاول قليلاً ليشبه حبّة عنب كبيرة.

تابعت:

- البحر يشفي كلَّ داء، ثمّ إنّ هذه سنةٌ مباركة لعائلتنا لأنّ أبا زوجي

هو نقيب «الأرواح»، وهذا ما يجلب الحظّ السعيد.

طلب بيليا مزيداً من الإيضاحات، وسرعان ما وثب جميع الأولاد للإدلاء بها، فإذا بالعجوز يسكتهم بإيماءةٍ صارمة. للموضوع قدْرٌ عظيمٌ عنده ولا يجوز تدنيسه، لذا تحدّث عنه بنبرةٍ يشوبها بعضُ الزهوّ:

- الموضوع كالتالي: يوجد عندنا جماعةٌ أخويّة عريقة تسمّى «جماعة الأرواح»، وهي من أجل دفن الموتى. وفي كلّ عام يُنتَخَبُ نقيب لها. وتعمل هذه الأخويّة في الإتيان بالمتوفّى، وتتولّى شؤون الجنّاز، والتشييع، والدفن. ولا تدفع العائلة إلّا نصف سكودة من أجل القدّاس سواء أكانت ثريّة أم فقيرة. ويتكفّل النقيب بالنفقات الأخرى وتقديم النبيذ الفاخر حسب طلب الإخوان عند العودة من الجنازة. ولكنْ يقال إنّه خلال العام لا تقع عليه أيُّ مصيبة، وتسير كلُّ أموره على ما يرام. لأنّ أرواح الموتى ترعاه. أهذا صحيح، أم غير صحيح؟ بالتأكيد إنّني في هذه السنة مطمئنٌّ وصافي البال مثل سمكة في مرسى منعزل، أموري في أحسن حال، الأولاد بصحّة تامّة، الحصاد كان جيّداً. وحصلتُ منه على كلفة وما أزال، بفضل الأرواح! فبينما كانت نسبة الوفيات ضئيلة في السنوات السابقة، مات الناس في هذا العام بكثرة بسبب الجائحة الإسبانيّة وكوارث أخرى. ثلاث وفيات في اليوم. وأسعار النبيذ ترتفع دوماً، وهؤلاء الإخوان الشياطين الذين بات معظمهم في أرذل العمر فاقدين لإمكانيّات الشباب هم عطاشٌ مثل الأولاد بعد السباق. لكنّني سعيد: تؤسفني حال الناس الذين يموتون، أكثرهم شبّانٌ ونساءٌ وصغار، ولكن يبدو لي أنّ أرواحهم ترعاني مثل كثيرٍ من الملائكة. فالإخوان في المحصّلة يشربون نخب الأرواح المخلّدة، وهذا ما

يجلب الحظّ السعيد. فلنشرب نحن أيضاً، نخب أجسادنا.

أضحكت الخاتمةُ الأولادَ من جديد، وضحك الكبار كذلك. ولمعت عينَا زيبيديو بنور الأمل والإيمان، وعينَا ماريّا كاتيرينا باركاي أيضاً. فقرَّبت الكأس من شفتيها هي الأخرى، وتوجّهت أنظار الجميع إلى يد بيليا.

*

أمضت عائلة باركاي المجهدة الأسبوعَ الأوّلَ في صفاء بال، حتّى بدا فعلاً أنّ مجرّد التواصل مع أسرة المضيف كافٍ لتشتيت الآلام كلّها.

وكان جرح بيليا ييبس بسرعة حالما يتعرّض للشمس. وقد اختبأ في اليوم الأوّل خلف صخرةٍ شاطئيّة لأنّه كان يخجل من مرضه كما لو أنّه خطيئة. قلقت أمّه عليه فراحت تبحث عنه، وسارت بمشقّة على الشطّ وتراجعت مراراً من الهلع كلّما حاولت الموجة الوصول إلى قدميها على حين غرّة. جلست بجانبه ولم تعد تفارقه.

كان يئنّ، ثمّ أخذ يدمدم، ثمّ قال إنّه ما إن يتعافى يودّ الحصول على أكورديون فاخرٍ بمفاتيح فضّيّة.

- ستنال كلَّ شيء يا ولدي، شرط أن تظلّ محترزاً وتساعد نفسك على الشفاء.

التفتَ شارداً، بيديه السليمة تحت رأسه والأخرى على صدره، كان عارياً تقريباً، بناء على توصيات الطبيب، وكانت أمّه ترى في جسده النحيل الطويل والشاحب، وقد تضخّمت عظام ركبتيه، ويده التي بدت مثقوبةً بفعل مسمار، تراه كجسد المسيح الممدّد. وكانت هي بقربه ترعاه وقد أحسّت بقيامته.

- لا بدّ أنّ أبي على متن القطار في هذه الساعة -قال وهو ينظر إلى السماء بحدقتين متّسعتين -لقد سافرَ بعد أن اطمأنّ لرؤيتنا بخير، لكنّه كان قلقاً حيال شؤون البيت. لو أنّه بقي معنا هنا لأحْسنَ صنعاً: باله مشغولٌ دوماً بالأملاك والمستقبل أكثر ممّا ينبغي. ما الجدوى من الأملاك؟ إنّي أريد أن أعيش بلا شيء، عارياً، على شاطئ البحر. سأصطاد السمك لكي آكل، وسأشيّد لنفسي كوخاً مثل أكواخ المستجمِّين الفقراء في الأعلى، هل رأيتِها؟

أجل، كانت أمّه قد رأتها: أكواخ مبنيّة من الأغصان ومتوارية عن النظر مثل الأعشاش ما بين هضاب البَراح حيث تختلط تموُّجاتها الخضراء بأمواج البحر الخضراء. وهناك يؤوي المستجمّون الفقراء، منفصلين عن الآخرين، كما لو أنّهم مرضى بالجذام.

وفي الحقّ كانوا كلّهم مرضى: الأطفال مصابون بالكساح، والنسوة بالسلّ، والرجال بالقرحة، والجرب، وربّما بالجذام حقّاً.

- سأعزف على الأكورديون مثل ذلك الفتى الذي كان في ليلة البارحة يُرقِّص النساء في المبنى، لكنّي سأعزف عليها لي وحدي. وإن عشتُ بعدكم، عسى أن يطيل عمركم مئة عام، أريد أن أبيع كلَّ شيء لأشيّد بيوتاً هنا من أجل أولئك البؤساء سكّان الأكواخ. وسأبني كنيسة أيضاً، وأزوّدها ببرج الناقوس، وعلى البرج أضع منارة للبحّارة التائهين.

كانت الأمّ توافقه، وكانت ستوافق على كلّ ما يقول، بما فيه مشاريعه الخيالِيّة، مؤملةً أن ترى ابنها، الممدّد تحت الشمس بطمأنينة، يتماثل للشفاء.

- بلدتنا الآن تبدو لي بعيدةً كثيراً، تبدو لي حلماً، والدار سجناً. لم يكن كذلك في السابق، حيث كنتُ أستمتع جدّاً، في الدار وخارجها،

ولكنْ منذ أن توفّي عمّي بازيليو تدهورت الأحوال كلُّها.

- لماذا تفكّر في هذا الآن؟ دعْ عنك ما يقلقك. فما كانت الأشياء لتبدو لك قبيحةً إلّا لأنّك كنتَ مريضاً.

- وذاك الطبيب! لو كنتُ صغيراً في السنّ لبدا لناظريَّ غولاً. أعتقد أنّه رجلٌ شرّير، إلّا أنّه قد عانى كثيراً في صباه. أُدرك أنّني إذا استمرّت أوجاعي هكذا، فإنّي سأقتلُ أوّلَ شخصٍ يظهر لي في الشارع ذات يوم، لكي أنتقم.

- ممّن تنتقم؟

تردّد قليلاً ثمّ قال:

- من الله.

- ويحك يا بيليا! أنت تجدِّف بالله. إيّاك أن تتلفّظ بشيءٍ من هذا القبيل بعد، وإلّا عاقبك الله بالفعل.

- لماذا يرغمني على هذه الأوجاع إذن؟ ما الذي فعلتُه؟

أسمعتْهُ أمّه خطبة: إنَّ الله يجعلنا نتألّم لكي يختبرنا، وإنَّ يسوع بذاته عانى رغم أنّه بريء، وإنَّ الألم هو تاج الإنسان. وكان بيليا في الأثناء يدندن بأغنية وما عاد حتّى يصغي إليها. وكانت ساعة السباحة تقترب. فقد ظهرت أولى الرؤوس تعوم على سطح الماء، ونسوةٌ يرتدين كنزاتٍ وتنانير تحتيّة مخيَّطةً ما بين الساقين لانعدام ألبسة مخصّصة للسباحة، كُنَّ ينزلن على الشاطئ يعتريهنّ الحياء، حيث يتوقّفن لملامسة الموجة بأقدامهنّ كما لو أردن اختبار حدّتها.

روزا كذلك، بعد أن أعدَّت ما يلزم للفطور، خرجت مع النسوة والأطفال إلى الشاطئ، متدثّرةً بالسواد، الحجاب على رأسها، وتنتعل حذاءها الضخم الذي يغوص في الرمال، وكانت تبدي هلعها وهي تنظر

مبهورةً إلى ارتجاف الموج.

وحين رآها بيليا، اِلتفتَ إليها وأخذ يصيح ويصفّر للسخرية منها. فامتعضت ووهنت عزيمتها، ولولا أنّ النساء دعونها إلى السباحة معهنّ ووعدنها بإمساك يدها باستمرار لما خلعت حذاءها.

- سأبلّل قدميَّ فقط، مثلما نفعل في ليلة القدّيس يوحنّا.

وهكذا فعلت، سوى أنّ موجةً هاجمتها بغتةً فهربت راكضةً تتبعها المياه اللامعة التي بلّلت أهداب ثوبها.

وثب بيليا واقفاً واستأنف صياحه واستهزاءه بقوّة وهو يصفّق، فقلّده أبناء المضيفين على الرغم من تنبيه النساء. استبدّ الهوان بوجه روزا، وكادت أن تبكي، ثمّ عادت إلى المنزل وظهرت منه بعد قليل مرتديةً مثل النسوة الأخريات، مجرَّد كنزة وتنوّرة تحتيّة مخيّطة بين الساقين، لكنها لا تزال تعتمر حجابها، ما أثار بهجةً كبيرة في نفوس الجميع.

نزعته عن رأسها بحركةٍ واحدة، ورفرفته في الهواء، فكان لونه الأسود يتماهى بزرقة البحر، ثمّ ألقته بجانب الحذاء الذي تركته على الرمال. وعادت إلى المياه، انحنت وغمرت فيها يدها ورشمت علامة الصليب.

- توقَّف يا بيليا -قالت له أمّه وهي تشدّه إلى الأسفل -إن واصلتَ سخريتك منها فإنّها قد تذهب إلى عرض البحر نكايةً.

وكانت روزا تتقدّم حقّاً، بجسارة وهامةٍ مرفوعة، ترفض أيدي النساء الممدودة لمساندتها. تنظر إلى الأعلى كي لا ترى الخطورة، لكنّها أصبحت شاحبة، تصطكّ أسنانها من شدّة البرودة.

وِأطلقت صيحة مفاجئة، كما لو أنّها توشك على الوقوع، إذ وطأت قدمُها على حفرة. توقّف بيليا عن الصياح، واصفرّ وجه أمّه وراحت ترجو النسوةَ أن يُنقذن روزا. أمّا روزا فكانت تُنقذ نفسها بنفسها عندما

استوعبت أنّ الخطر مدعاة للضحك. جثت على ركبتيها تحت الماء، وزالت قشعريرة البرد الأولى، ومن ثمّ أحسّت بمتعةٍ لا توصف حين شعرت أنّها محاطة ومرتهنة كلّياً بلعبة الأمواج.

شكّلت النساء دائرةً حولها وتشابكت أيديهنّ بها يشبه الرقصة التي ذكَّرتها برقصة الرتيلاء عندما جيء بالمريض المصاب بلدغةٍ سامّة ودُفِنَ في التراب حتّى عنقه، ورقصت حوله سبع أرامل وسبع متزوّجات وسبع عذارى، إلى أن امتصّت الأرض السمَّ من جسده.

كذلك كانت تشعر أنّ المياه تمتصّ كلَّ خوفها وكلَّ مسبِّبٍ لقلقها في حياتها. تاهت في زرقة البحر فبدا لها أنّها تستطيع السباحة كالأسماك، سوى أنّ ثيابها الغامقة والعائمة التي نفختها المياه جعلتها شبيهةً بحبَّار، في حين أنّها ودّت التحرّك عاريةً وحمراء مثل سمك الحامر.

قعدت ثمّ تمدّدت، فعامت، تتكئ بيدٍ على الرمال، وسرعان ما غدت أكثر السابحين جرأةً ورشاقة، ونسيت أن تخرج من الماء ونسيت أنّ القدْرَ بانتظارها.

استلقى بيليا بجانب أمّه مجدّداً، يرنو صوب البحر، وصار ينظر إلى روزا بحسدٍ، إذ مُنِعَت عليه السباحة في ذلك اليوم الأوّل.

- هيّا، تعال -صرخت الفتاة وهي تقترب من الشاطئ -هل أنت خائف؟ سأساعدك!

لكنّه لم يشأ أن يكون محطّ سخرية من خادمته، فنظر إليها بعينين تحتقران.

- فكّري في تحضير طعامي بالأحرى، فغداء الآخرين بات جاهزاً.

*

صارت الظهيرة أقلّ ابتهاجاً من الصباح على ذلك الشاطئ الشرقيّ حيث يشتدّ البحر كآبةً كلّما هبطت الشمس نحو الجبال البعيدة: الموج يتغضّن والمدى يتّسم بحزنٍ طافح بالحنين الغيور على ما تبقّى من ضياءٍ في أفق الأرض. وأمّا صوت ذلك المَنظر فيتمثّل في أنغام الأكورديون المغتاظة في رتابتها والآتية من الأعلى بين الآجام وأكواخ مخيّم الفقراء.

راودَ بيليا إحساسٌ بالبرد، إذ كان لا يزال عارياً، ولم يشأ أن يرتدي ثيابه رغم هذا ورغم توسّلات والدته. كان في صميم نفسه يشعر بالارتياح، وبعذوبةٍ حسّيّة، كلّما تماهى ألمه بألم الأشياء المحيطة به.

لفت انتباهَهُ مخيّم الفقراء البدائيّ، في حين كان البيت الكبير، الذي يقيم فيه المستجمّون الأثرياء، بنوافذه المتشابهة، وأطياف الفتيات المتّشحات بالبياض والرجال المتأنّقين بأطقُم قماشيّة، لا يثير اهتمامه البتّة. إنّما كان يحسد الفتية الذين من عمره يركبون القارب ويَجْدِفون. تولّد لديه انطباعٌ بأنّ لهم أجنحةً، وأنّهم عند وصولهم إلى البعيد حيث يمتزج البحر بالسماء سيبقون معلّقين في الهواء للهيمنة على العالم بأسره. ليته يستطيع أن يَجْدِفَ مثلهم هو أيضاً! فما جدوى أن يكون ثريّاً إن كان في الوقت نفسه أكثر عجزاً من الفتية الفقراء في المخيّم الذين يتوارون لإخفاء جراحهم؟

مرّت قوارب أخرى تنقل نساء ورجالاً بمحاذاة الشطّ لتختفيَ خلف حاجز الصخور البحريّة التي تغلق المرسى. إلى أين يذهبون؟

- إلى رؤية مغارة الحوريّة -فسّرت روزا وهي قاعدة على الرمال وقد راودتها التعاسة هي الأخرى -تقول خادمة المضيفين إنّها زارت ذلك المكان، ووصفته بأجمل مكانٍ في العالم: كنيسةٌ في جوف الصخور، عامرةٌ بالشمعدانات الماسيّة، وفيها مذبحٌ لا يمكن إبصاره من هول سطوعه. وتتدلّى من سقفه عناقيد عنب وفاكهة من

الذهب واللؤلؤ كلِّها، كما إنّ أرضيّتها مرصوفةٌ بالجمان والمرجان، وتتسلقّ على جدرانها نباتاتُ الورود الذهبيّة. لكنّ الدخول إليها صعب، يجب أن يكونَ البحر راكداً مثل الزيت، والويل لمن يسارع إلى الخروج منها، لأنّ الحوريّة المختبئة في المغارة تلهو بهزّ البحر حين يكون الزوّار في الداخل، فيستحيل الخروج حينذاك، ومَن يحاولْ يغرقْ.

- نأملُ ألّا تراودكِ الرغبة في الذهاب إلى هناك. -قالت السيّدة.

- أنا؟ لا قدَّرَ الله! لا أريد مخاطرة البقاء في الداخل ثلاثة أيّام مثلما حدث لابن عمّ خطيب خادمة مضيفينا. ولئن كان جلدي أسمر، فأريد أن ألوذ به بلا متاعب.

- أمّا أنا فأريد الذهاب -أعلن بيليا. وإذ رأى أنّ عيني أمّه تنحجبان بالقلق أضاف: -تعالا معي أنتما أيضاً.

لكنّه بدَا أنّه قالها بفعل غريزة القسوة لا لكي يطمئنها.

- إن ذهبتُما انضممْتُ إليكما -هتفت الخادمة -وإن تحتَّم علينا البقاء في الداخل فما هَمَّنَا! سنأخذ معنا بعض الزاد، وليلة سعيدة!

- لن تذهبَ إلّا بإذنٍ منّي يا بيليا -أكّدت أمّه لفرض سطوتها ما جعلها تشعر بالغصّة: غصّةٌ من المخاطر التي قد تقع عليه إذا ما اتّجه إلى المغارة، فضلاً عن مخالفتها لتطلّعاته.

ابتسمَ بيليا، من نبرة السطوة ومن العذاب المتخفّي بكلماتها على حدٍّ سواء، فهو يعلم في العمق أنّه يستطيع فعل ما يشاء ويرغب.

وما زال الأكورديون في الأعلى ما بين نبتات الأثل التي تتباعد بلونها الداكن تحت السماء التي احمرّ جانبها الغربيّ، تعزف أنغاماً تشبه قارباً يختفي خلف الصخور، ويُشبع هوسَ قلبِ فتيٍّ ومريض: آهٍ لو كان بإمكانه المضيّ

هكذا في بحر الحياة بحثاً عن مغارة الأوهام، ليهجر قلب أمّه المطمئنّ وينصاع لابتسامة الحوريّة الخدَّاعة.

*

في الصباحِ التالي، نزل بيليا للسباحة للمرّة الأولى. كان يرتدي سروالاً طويلاً مخطّطاً بالأصفر والأحمر يتماوج كالأفعى على مشيته. صاحت روزا، وهي في الماء:

- يا جراد البحر، يا جراد البحر!

- يا جبّار، يا جبّار -ردّ عليها، لكنّ صوته صدح متردّداً، فكان يتلمّس المياه بقدمه، متخوّفاً من الخوض فيه. ودَّ لو أنّه ذهب للسباحة خلف البيت الأبيض، صحبة الرجال الآخرين، لكنّ أمّه لم تسمح له بذلك. إذ رأت أنّ بإمكانه الظهور كأكبر الأولاد الذين يُسمَح لهم بالبقاء مع النساء. كانت أمّه ترافقه وتراقبه تماماً كما لو أنّه طفلٌ يتعمّد بالماء للمرّة الأولى، وتتألّم هي الأخرى من عدم استطاعتها نزول المياه وإمساكه من يده، مثلما تفعل النساء الأخريات مع صغارهنّ.

لم يشأ الكلبُ أيضاً أن يفارقه. كان ينتصب بطوله وبياضه أمامه، عارياً هو الآخَر، يُصدر أنيناً كالبشر، ويبدو أنّه يسعى إلى استبقائه وإنقاذه من المخاطر.

ولحسن الحظّ أنّ بيليا يسير بتخوُّفٍ وحذر، إذ تملّكه انطباعٌ بأنّ المياهَ تلتفّ حول كاحليْهِ كالخيوط الغامضة، لتجذبه بعيداً، ولولا صياح روزا واستهزاؤها لعاد إلى الخلف نحو أمّه ببالغ السلوى.

كانت والدتُهُ منتصبةً على الرمال ويدها على عينيها، تتفوّق بالقلق على

نساء الصيّادين عندما يكون أزواجهنّ في عرض البحر، فيعصف الإعصارُ بغتةً ليقذف طيورَ النوِّ إلى الأمام. ألقت بجانبها غطاءً بدا كالشراع، أرادت أن تدفئه بالشمس لتنشِّف به ابنها، وقد وضعت عليه سلّة الخبز والبيض والبسكويت والنبيذ الأبيض وما يكفي لإنعاش عشرة غرقى.

ولم يكن الكلب أقلّ اضطراباً منها، كان ينزل الماء ولا يجرؤ على التقدّم فيه، فيعود نحو سيّدته ويحفر في الرمل عند قدميها، وينبح طالباً النجدة. وفي النهاية أصاخ سمعه لموجةٍ تتقدّم تجاهه، فلحق بها، وسلّم أمره لها، وبدأ السباحةَ حتّى وصل إلى سيّده الصغير فتشبّث به وبدا أنّه يريد تقبيل وجهه.

استمدّ بيليا الشجاعة من مثال الكلب.

- روزا -أمر خادمته كما لو أنّهما في مطبخ داره -أخْرِجي هذا الحيوان من هنا.

ورَمى الكلب عليها لينتقم من سخريتها عليه، ثمّ مضى باحترازٍ كبير.

كانت أمّه تراه يبتعد ويغرق تدريجيّاً: ها هو البحر يبدو أنّه يبتلعه، كان قد التهم ساقيه، ركبتيه، وفخذيه، ولم يسلم من جسمه إلّا نصفه الأعلى.

- بيليا، بيليا، لا تتقدّم أكثر.

تاهَ صوتها بأصوات النساء الأخريات اللواتي ينادين على أولادهنّ بلا جدوى. فراحت الخادمة التي اضطرّت إلى المكوث على الرمل لاستبقاء الكلب تلهو ببثّ الرعب في قلبها.

- لقد خرجتُ من الماء لكثرة ما فيه من رتيلاء بحريّة، لأنّ لدغتها تسبِّب شرَّ موتة.

- وبيليا لا يدري! انظري كم صار بعيداً!

- لا تخافي -طمأنتها مضيفتها -غير صحيح أنّ هناك رتيلاء. ثمّ إنّ

المياه منخفضة إلى حيث ترين أولئك الرجال يسبحون.

- أرى واحداً منهم يبدو لي ميّتاً، يا سيّدتي. لا بدّ أنّه غرق.

- كلّا، بل يتظاهر أنّه ميّت، كما يقال -فسّرت المضيفة.

- كلّا، كلّا، لا أودّ رؤية البحر إلّا من مسافة بعيدة -قالت الأمّ- من قمّة جبل.

- انظري -صاحت الخادمة وهي تتّكئ على ركبتيها- ما تلك البقع التي هناك؟ أسماك قرش؟

- ألا ترين أنّها قوارب؟

- بيليا، بيليا! لا تتقدّم. انظري كم هو شاحبٌ ويرتجف. سيمرض.

- هذا بسبب ضغط البرودة -قالت المضيفة- ينبغي له الغطس في الماء كلّيّاً.

- بيليا، انزل تحت الماء. لا تبرد. يا ربّاه، سأموت اليوم بسبب هذا الولد. (إنّ الطبيب الذي أوصاه بالسباحة يريد أن يدمّرنا حقّاً، ولقد أصاب مَن وصفه بالشرّير).

وبينما كانت المرأة التعيسة تفكّر في ذلك أشارت لابنها أن يغطسَ، ففهم قصدها أخيراً، وانحنى تحت الماء، فاختفى، ثمّ ظهر ثانيةً، شاحبَ الوجه، وجسده يرتعش ويتلألأ.

- هذا يكفي اليوم -قالت الأمّ- فلقد أوصاه الطبيب بقليلٍ من السباحة في اليوم الأوّل.

- لا يكفي ذلك -لاحظت المضيفة- دَعيهِ مزيداً.

- هل يبقى أولادكِ في الماء طويلاً؟

- بل عليكِ أن تسأليني إن كانوا يبقون على اليابسة. ألا ترين أنّهم لا يخرجون من الماء إلّا عندما يشعرون بالجوع؟

اطمأنّت قليلاً، انحنت وقعدت على الرمال بجانب المضيفة. وبدا لبيليا أنّها تشير عليه بالانحناء هو الآخر. فغطس من جديد بالفعل، وأخذ يتكيّف مع الماء، يتذوّق منه ويبصق، يمضي بعيداً بمفرده، متردّداً بعض الشيء لكنّه سعيدٌ مثل طفلٍ يتعلّم المشي توّاً.

- أعتقدُ أنّ هذا يكفيه اليوم -أشارت المضيفة- بإمكانكِ أن تخرجيه.

- بيليا؟ بيليا؟

صار بيليا بعيداً بحيث لم يعد يسمعها، فأحسّت المرأة القلقة أنّه يذهب صوب سواحل البحر من الجهة الأخرى.

- روزا -قالت للخادمة- اذهبي ونادي عليه.

- حقّاً! كما لو أنّه في الطريق المواجه للدار!

- يا ربّاه! ماذا أفعل؟ ليت والده كان هنا على الأقلّ.

حتّى الكلب عاد إلى توتّره، ينوح ويعارك الخادمة التي تبقيه بجانبها على الدوام.

وها هو بيليا يعود ببطء، ظافراً لكنّه ما زال يتوخّى الحذر، يسير بين الموج المنخفض، كما لو كان وسط حقل من القمح لا يودّ أن يدوسه.

وتولَّدَ لدى أمّه انطباعٌ بأنّ البحر نفسه يبتسم وهو يعيد إليها محبوبها.

نهضت وحملت الغطاء الذي أدفأته الشمس، رفعته كأنّه مصدُّ رياح بينما كان بيليا ينزع سرواله، ثمّ لفّته حول جسده جيّداً. وراودتها الرغبة إيّاها: أن تضمّ الفتى لتنشّفه وتدفئه بصدرها.

وسرعان ما أعطته بيضةً يشربها، ثمّ كأس نبيذ أبيض. ثمّ انحنت لتنزع الحصى من الرمل، حيث كان سيتمدّد، وغطّت قدميه بالرمل الدافئ. جلست في النهاية بحيث يستند رأسه بحضنها ويتفيأ ظلّها.

*

عاد زيبيديو في يوم السبت، حاملاً معه صرّتين مليئتين بالخبز الطازج والحلويات والفاكهة ومنتجات الألبان. وعلى الرغم من الحِمل الثقيل كان يمشي برشاقة على امتداد الشاطئ ويبدو بملامح سعيدة، حتّى إنّ روزا إذ ركضت لملاقاته وخزته بمزاحها اللئيم.

- هل عثرت حضرتكم على عشيقة، في البلدة، أثناء غياب زوجتكم بعيداً؟ تبدو قد استعدتَ عشرين عاماً من شبابك.

- أمّا أنتِ فغدوتِ نحيفةً مثل سمكة الرنكة، لأنّكِ لم تعثري على عشيق. -أفحمها، بنبرةٍ تخلو من اللؤم، لكنّ مجرّد أنّه تقبّل مزاحَ الخادمة بصدرٍ رحبٍ يبيّن صفاء مزاجه.

ثمّ عظمت بهجتُه حينما رأى بيليا. كان يبدو مختلفاً هو كذلك، فلقد اكتنز بدنه واسمرّت بشرته، وانقشعت غمامة الحزن القاسية عن عينيه بعد أن أرَّقتهما كثيراً في الماضي.

انحنى لينظر في السلال واللفائف التي كانت روزا تخرجها من الصرّتين، وراح ينتقي ما تحتويه عشوائيّاً ويأكل بشراهة، بينما كان والده يراقبه بنظرةٍ هانئة.

- كيف حال يدك؟

لم يعد بيليا يذكر يده منذ أن اندمل جرحها كاملاً.

وعندما ذهبوا للقعود على الرمال، تلفَّتَ زيبيديو للتأكّد ممّا إذا كان أحدهم يتنصّت عليه، بمن فيهم الخادمة، ليبوح لزوجته بسرّ فرحته.

- لقد غادرت تلك المرأة. ذهبت إلى زوجها. نأمل ألّا تعود إلى البلدة.

تنهّدت زوجته، تنهيدةً غريبة لا تنمّ عن ارتياح إنّما عن مشقّةٍ مفرطة. نظر إليها وتنبَّهَ إلى كونها تغيّرت هي الأخرى، لقد نحفت وباتت حزينة

العينين، كما لو أنّها تنازلت عن لحمها لتسمِّن جسد ابنها، وأنّ حزنه انتقل إليها بطريقةٍ ما.

- ماريّا كاتيرينا - قال متوجّساً - ما الذي دهاكِ؟ ما بكِ؟

- لا شيء يا زيبيديو. إنّه مناخ البحر يغالبني. لا أستطيع النوم في الليل.

- لأنّكِ تتناولين من القهوة أكثر من اللازم، ربّما.

- ربّما، لكنّي لا أرغب في سواها. كما إنَّ هاجسي عن الدار يؤرِّقني.

- أنتِ مجنونة يا ماريّا كاتيرينا. الدار محصَّنةٌ كقلعة، لأنّي أمرتُ الخادم بعدم مبارحتها، كي لا تقلقي بشأنها، ثمّ إنّ العجوز تحرص على كلّ شيء بدقّة ولؤم كأنّها أمّ الشيطان. لا تخافي، كلّ شيء يجري على ما يرام. حتّى وضعُ مزارعنا في الريف أفضل، كما لو أنّ لعنة تلك المرأة قد انتهى مفعولها.

- لم أؤمن باللعنات يوماً -قالت زوجته برباطة جأش- فنحن الأحياء لا يمكننا صنع شيءٍ لولا مشيئة الله.

- حسناً، لعلّ الله أرجأَ تعذيبنا على خطايانا. الحال أنّ الأمور على ما يرام، حمداً لله.

كان صوته مرحاً، غير أنّ ظلّاً غامضاً مرّ على عينيه، يشبه ظلال البحر تماماً: من أين تأتي هذه الظلال؟ فالسماء صافية لا غيم فيها، والأرض بعيدة، والأمواج خاوية. ورغم هذا أعتمت ستائرُ الظلالِ الكبيرةُ بعضَ المناطق في السهول، حيث الماء راكد حتّى بدت أنّها تتصاعد من أعماقه.

- ما أخبار البلدة؟ -سألت الزوجة- ماذا يقول الناس في رحيل ليا؟

- تعلمين أنّني لا أفاتح أحداً في شأنها البتّة، ولا أحد يجرؤ على التحدّث بأمرها معي. ثمّ إنّني في هذه الأيّام تحاشيتُ اللقاءات عمداً، منعاً للثرثرة. وأمضيتُ معظم الوقت في الأرض أتفقّد أملاكنا، وعملتُ

أكثر من الخدم. سوى أنّني ذهبتُ إلى القسّ. إنّه مريض، وقد لزم الفراش بعد تلك الأمسية، ولم يعد لديه طاقةٌ ليلوِّح وداعاً بيده.

- بعد تلك الأمسية؟

- آه -قال مرتبكاً- بعد تلك الأمسية، عشيّة سفرنا، التقيتُه بالميدان، أظنّ أنّني أخبرتكِ بهذا.

كلّا، لم يخبرها بذلك اللقاء، لكنّها لم تلحّ، إذ كان يشغل بالَها شيءٌ آخر.

- هل تعلم ما قال لي مضيفنا؟ إنّنا نحسن صنعاً بالإتيان بالولد إلى البحر. فالبحر يقوّيه ويعافيه. وإلّا قد يؤول مآلَ القسّ. لو أنّ القسّ عُولِجَ جيّداً، منذ صغره، لما انتهت به الحال هكذا. لكنّه كان شديد التعلّق بالمال.

- أمّا نحن فلسنا متعلّقين بالمال -طمأنها زوجها- من أجل ابننا سنفعل كلّ ما في وسعنا، سنحيا ونعمل ونشقى من أجله حصراً.

- لكنّه ناكر الجميل نوعاً مّا -أسرَّت إليه الزوجة همساً، بينما كان بيليا يهبط راكضاً من المنزل ليلقي بنفسه في البحر بحيث هيَّجَ الماء كما لو هوى فيه حصانٌ يرفّس. -أرأيته! لقد تناول طعامه توّاً ونزل في البحر ما قد يعرّضه للإغماء. بيليا، بيليا -صاحت به بلا فائدة- أبكرتَ كثيراً، لقد أنهيتَ طعامك توّاً. لا تغطس، لا تتقدّم! تعال للجلوس مع والدك قليلاً. آه! ما همُّ هذا الطائش بأبيه وأمّه! لا يفعل إلّا ما يطيب له وكفى. فحتّى لو رآني أموت كمداً ما كان ليبالي، لا بل يسخر منّي. يبدو أنّه يتلذّذ بتعذيبي.

- لا تبالغي يا ماريّا، فأنتِ تقلقين من أجل ترّهات. ألا ترين كم هو رشيق؟ دعيه يتحرّك ويستمتع. فإنّ هذا ما يعافيه.

- البحر هادئٌ اليوم ولا توجد مخاطر، ولكنّه قبل أمس كان مائجاً، بدا

أنّه يريد اكتساح السهل كلّه بأمواجه العاتية. وكان الطقس بارداً، لا أحد نزل للسباحة، ما عداه. واختفى فجأةً. ظننتُ أنّه مات.

- سأزجره -وعدها زيبيديو، لكنّ روعها لم يهدأ.

- زيبيديو، أنت تعلم أنّني امرأة هادئة، أكاد لا أخرج من الدار، ومنذ أعوام وأنا لا أذهب حتّى إلى الأرض. ولولا محبّتي لابني ما كنتُ تحرّكت، فإنّ هذه الرحلة بالنسبة إليّ تُعدُّ رحلةً إلى أقاصي العالم. ألسنا في أقاصي العالم؟ -قالت وهي ترنو إلى قوس البحر بنظرةٍ غامضة -هذا الخطّ من الرمال، يبدو لي أحياناً شفيرَ هاوية. يتحرّك كلُّ شيء بعد هذا الخطّ الثابت، وكلُّ موجةٍ تفتح أفواهها مثل حيوانٍ مفترس. فإنّ ما يراودني من أحاسيس هنا يشبه ما يراود المرء في ساعة الموت. قبل أمس، أقسم لك بإيماني، كنتُ أرى صورة الجحيم حقّاً في البحر المائج: ألف شيطان وشيطان يصارعون الأرواح الملعونة. ففكّرتُ بأنّ ما يؤكّده الكثيرون صحيحٌ بأنْ لا وجود للآخِرة، وأنّ في هذه الحياة التي نعيشها يوجد الفردوس والجحيم والمطهر.

انتفض زوجها ليقعد على الرمل، حيث كان مستلقياً هانئ البال: كانت كلمات زوجته ولاسيّما نبرتها وتعبير وجهها تهزّ وجدانه في الصميم. ظنّ للوهلة الأولى أنّها تُبطِن معنىً خفيّاً في كلامها، معنىً يوقظ مخاوفه النائمة. لكنّه فطن إلى أنّها تتحدّث بلا إيحاءٍ إلى شيء عدا رهبتها من البحر، فحاول أن يهدّئ خاطرها مجدّداً. إلّا أنّه عجز عن تنويم عذابه المستيقظ: ففي العمق كان اضطرابه واضطراب زوجته وحدةً واحدة.

- هذا من تأثير المناخ الذي لستِ معتادةً عليه. فالبحر يؤجِّج مثل هذه المشاعر في نفوس الكثيرين، لكنّها أزمة عابرة. ثمّ إنّنا سنعود إلى

دارنا في غضون أسبوعين أو ثلاثة، حدّاً أقصى، ولن نعود إلى هذا الحديث بعد.

- لن نعود إلى هذا الحديث بعد؟ وماذا عن الأعوام القادمة؟ سيتجدّد هذا العذاب في كلّ عام.

- لا تبالغي يا ماريّا! سيتعافى الفتى، وربّما سيكون بإمكانه المجيء بدونكِ.

- بدوني؟ بدوني كان سيموت غرقاً عشر مرّات حتّى هذه الساعة. لن أتخلّى عنه أبداً. حريٌّ بكَ أن تنبّهه أن يتوخّى الحذر، وألّا يبتعد. لقد وضع نصب عينيه مغارة الحوريّة، حيث يسهل الدخول ويصعب الخروج. روزا الحمقاء لا تتحدّث إلّا في ذلك، حتّى أولاد المضيف يتحدّثون بأمر المغارة، وابنك يريد الذهاب مهما كلّف الثمن. عليك أن تحرّمها عليه.

- سأفعل -وعدها ليطيّب خاطرها، وحين عاد بيليا إلى الشاطئ وجد نفسه أمام غضبِ أبويٍّ قابله بابتسامة استهزاء وكلماتٍ متطاولة أخيراً. يبدو أنّ تلك الحياة البدائيّة على شطّ البحر جعلته متوحّشاً. فأقدَمَ أبوه على حركة تذكِّره بالتربية المنسيّة: صفعه بقوّة. فدافعت عنه أمّه حينذاك، وتجاوز أَلمُها على ابنها المعنَّف أَلمَها على ابنها المتمرّد. كلُّه يهون على أن ترى ابنها يعاني.

*

حتّى أبوه كان يفضِّل تطاولَ ابنه الصحيّ على هموده المرضيّ. وبما أنّ المضيف البشوش كان يقضي السبت والأحد مع عائلته هو أيضاً، أمضى الجميع يومين سعيدين زاخرين بالولائم الأسطوريّة.

كانت مأدبة السبت على نفقة المضيف، ومأدبة الأحد على نفقة آل باركاي. جوٌّ احتفاليٌّ يخيّم حتّى على البحر، إذ تقطِّب نسائمُ الغرب سطحَ المياه، فتغدو نقيّة على الرمال المتموّجة بحيث تبدو مياه ينبوعٍ تكاد تبعث على الرغبة في الشرب.

هبطَ كثيرٌ من الأغراب إلى الشاطئ، من البلدة ومن القرى الأبعد. وتناثرت عائلاتٌ من أحذية هنا وهناك على الرمال، وثمّة فتيةٌ يركضون على امتداد الشطّ، كما لو أنّهم لا ينوون التوقّف أبداً.

ودَعَا المضيفُ عازفَ الأكورديون ليضفي على تلك الظهيرة الاحتفاليّة بهجةً كبرى. رقصت النساءُ بمعزلٍ عن الرجال، ونزل المستجمّون الأرستقراطيّون من البيت الأبيض إلى باحة المنزل الصخريّة، حيث جذبهم الصخب والموسيقى.

وغادر زيبيديو يوم الاثنين بعد أن أوصى ابنَهُ بتوخّي الحيطة، وعدم إقلاق أمّه. وكان سيعود لاصطحابهم بعد خمسة عشر يوماً، لكنّ بيليا ما إن انصرف والدُه عاد يعبث على هواه في البحر وفي اليابسة. فقد ذهب في ليلة الاثنين نفسه مع عازف الأكورديون، الذي كان شابّاً حزيناً ونزقاً ومتشرّداً، ولم يعد إلّا في وقت متأخر من الليل.

كانت أمّه تنتظره على أحرّ من الجمر، جالسة مع الخادمة على دكّة الحصى أمام المنزل. وكان قلقها مختلفاً عمّا كان عليه حين يخوض ابنها مخاطر الماء، قلقاً أشدّ حرارةً وغيرةً هذه المرّة.

- تُرى مَن يدري إلى أين ذهب؟ إنّه في صحبة رفاق السوء الآن. ربّما ذهب إلى الحانة، أو إلى امرأة سيّئة السمعة، مَن يدري؟ فذلك الشابّ المنحرف، الذي لا يفعل شيئاً سوى العزف، لا مهنة أخرى يزاولها، وقد كان في أمريكا أيضاً، يبدو لي أنّه ابن الإغواء.

كانت الخادمة تحاول تهدئتها بلا جدوى.

- إنّهم شبّان! ويجدر بابنكِ أن ينفصل عن أهداب تنوّرتكِ أيضاً.

كانت السيّدة تنظر إلى النجوم، الدبُّ الأكبرُ على الحدود ما بين البحر والبراح، ولم تتمكّن من تهدئة أعصابها على الرغم من صمت الأمواجِ وصفاء الليل المعطَّر بأعشاب البحر والنعنع البريّ. انتصف الليل تقريباً، وانطفأت أنوار البيت الأبيض. لا شيء سوى قاربٍ خياليٍّ يتسكّع في البحر على طول الصخور، يضيء حيزومَهُ قنديلٌ وثمّة شَخصٌ يمدّ جذعه كأنّه يتفحّص عمق المياه ويقيسه.

- هل تظنّين يا روزا أنّ بيليا والشابّ المنحرف على ذلك القارب، متّجهين إلى مغارة الحوريّة؟ كانا يتحدثان عنها اليوم.

- ذاك صيّاد محار. وقد يكون روحاً ضالّة أيضاً. لكنّه ليس ابنكِ بكلّ الأحوال.

تناهت إلى المسامع أخيراً أنغامُ الأكورديون كأنّها من جهة البحر، وفي تلك اللحظة باركت الأمُّ ذلك الشريد الذي أعلن عن عودة ابنها.

لم تؤنِّبه حتّى، بل كادت تحسَبه الابن الضالّ، غير أنّها لم تُسكِتِ الخادمةَ التي انبرت تزجره من جانبها.

- عليك أن تستحيَ لأنّك ذهبتَ مع شابٍّ منحرفٍ كهذا، فهو أسوأ من المتسوّلين. المتسوّلون تلقّوا بعض التربية الحسنة على الأقلّ، أمّا ذاك فهو أمكر وأقذر من الثعلب. ويقال عنه إنّه لصٌّ أيضاً.

- ما كان ليسرقَ لولا الضرورة -ردّ بيليا بقوّة- ولو كانت ظروفكِ كظروفه لغدوتِ أسوأ منه بألف مرّة.

- كفى، كفى -قالت الأمّ- حان منتصف الليل، ليس الوقت مناسباً للجدال. فلنخلد إلى النوم.

- إن عاد ذلك الروح الضالّ إلى هنا سأصدّه بالحجارة -توعّدت روزا، فقَهقَهَ بيليا وتلفّظَ بجملةٍ أقلقت والدته:

- أنتِ تغارين منه.

- ولماذا أغار؟ هل أنا عشيقتك؟ تعال إلى هنا لأنظّف أنفك. في المحصّلة، ما قابلتُ أحداً إلّا ونعته بأقذع الأوصاف.

- لأنّ الجميع يحسدونه.

كانت الخادمة تشهق بالضحك وتصفر مثل الصفرد، في حين جاءها الردُّ من البعيد: صدح صوت الأكورديون كما لو أنّه يجيب نيابةً عن صاحبه: «أجل، أجل، يحسدني الجميع لأنّني سيّد الأرض والسماء: حيثما ألفيتُ نفسي استلقيتُ، لا أخشى من أحد: لا أحد بوسعه إيذائي لأنّني أعرف الشرّ حقّ المعرفة وقد اختبرتُه بتجلّياته كافّة، فهيهات أن يستطيع مسّي بضرر! كذلك الموتُ لا يخيفني، لأنّ حزني عميمٌ حتّى إنّ هاجس الموت يطربني».

كانت الأمّ تسمع تلك الأشياء المبهمة، فلا يزداد عذابها إلّا عمقاً وغموضاً.

في تلك الليلة نامت أقلّ من غيرها من الليالي: بدا لها أنّ بيليا في خطرٍ على الدوام، الكلُّ يريد أن يخطفه منها: البحر، والأرض، والبشر. ولَم تتيقّن أنّ الحياة ذاتها هي التي كانت تأخذه من بين يديها.

*

جاء عازف الأكورديون في الصباح التالي لملاقاة بيليا كأنّهما صديقان منذ أمدٍ طويل ومن الحالة الاجتماعيّة نفسها. ركن آلته الملفوفة بقماشة تحت ظلّ صخرة واستلقى على الرمل بجانب بيليا وكلبه.

لم تجرؤ أمّه أن تفوه بكلمة تجاهه، إنّما كانت تنظر إليه بعين الريبة، وتجد ما يثير الغرابة والقلق حقّاً في ذلك الجسد الطويل والأسمر والعظميّ، وفي تينك القدمين الضخمتين والمسطّحتين، ولاسيّما في وجهه الزيتيّ وأنفه الأفطس الشبيه بسحنات الزنوج. حتّى شعره كان أسود ومجعّداً، فيما كان لعينيه الواسعتين والحزينتين لونٌ غير محدّد يميل أحياناً إلى الأخضر كأعين القطط.

لم يكن يتحدّث، كان بيليا يعبث برمي حفنات من الرمل على شعره، فلا يردّ المتشرّد إلّا بهزّ رأسه كما لو أنّ صديقه يبلّله. يطوف الكلب حولهما، وكان في البدء عدائيّاً تجاه العازف ينبح في وجهه ويحاول عضَّ قدميه، ثمّ اطمأنّ من صياح صاحبه وإشاراته فأقعى بين الاثنين وسرعان ما وطّد صداقة مع المتشرّد.

شعرت الأمّ بالغيرة من هذا الأمر أيضاً، وودّت لو أنّ روزا تنبري ضدّ العازف، ثمّ ما إن نزل بيليا إلى الماء، اقتربت منه الخادمة وكظمت غيظها وقالت بهدوء:

- لا يخطرنّ في بالك أن تسبح هنا. لن يسمح لك مضيفونا.

نظر إليها العازف متفاجئاً بعينيه الحزينتين، ومن دون أن يدليَ بكلمة انتفض واقفاً واستعاد آلته وانتقل للجلوس ما بعد الصخور. لحق به الكلب وكان بيليا يومئ إليه من البحر، كأنّه تكهّن بكلام الخادمة وأراد أن يعتذرَ منه.

فأنّبت الأمُّ خادمتَها:

- لا يجدر بكِ أن تطردي فقيراً بهذه الطريقة، كما لو أنّه كلب. سيغضب بيليا الآن.

- دعيه يغضب، وإلّا انتهى المطاف بهذا الأجرب في غرفتكِ.

لم يغضب بيليا، لم يقل شيئاً، لكنّه في الظهيرة هرب ثانيةً واصطحب معه الكلب هذه المرّة. وقد اطمأنّت أمّه لذهاب الكلب برفقته، إذ رأت أنّ الحيوان سيحفظه من المخاطر التي كان يجابهها.

أمّا طبيعة تلك المخاطر، فلم تكن هي ذاتها تعلم ما طبيعتها، ولم تشأ تحديدَها حتّى في سرّها. لكنّها شعرت أنّها تبالغ في شأنها بدافع الخرافة، وبسبب خوفها من المكروه الذي أَلَمّ بالعائلة منذ مدّة، ووقع على بيليا تحديداً.

ها هي جالسة على دكّة الحصى تسترق النظر إلى درب البراح وتفكّر في ذلك المكروه تماماً. لماذا تفضِّل البلوى أن تقع على بيليا؟ فلنفترض وجودَ إثم اقترفه أبوه، وكلُّ العائلة على دراية به وساكتة عنه، فلماذا يجب على بيليا أنّ يدفع الثمن؟ لأنّ بيليا قلبُ قلبِ العائلة، يتسلّط عليه العقاب مثلما يتركّز الضوء في الموشور، لكي يشعّ على ما حوله بشكلٍ أوسع.

وفي العمق كانت تشعر أنّها تعاني حقّاً بمفردها. فآنذاك يلهو الفتى بغارته ويستمتع بالأذى الذي يفعله من تلقاء نفسه، يلهو بالتحرّر من براءته، ومن إذعانه ومن محبّته بوصفه ولداً. شعرت الأمّ بأنّ عذاباً يضاف إلى عذابها ليستفحل بها، وهو استياؤها من كونها فقدت السيطرة على ابنها، فهو في المحصّلة تبَعٌ لها، ملكها المطلق، وها هو يفلت من بين يديها. فكيف لا تعاني؟ كانت تلك المعاناة تماثل الرهبة أو تكاد: كما لو أنّها ترى أحد أطرافها ينفصل عنها، بل أسوأ من ذلك: كأنّه شيءٌ من طويّة نفسها، عقلها ذاته، محبّتها الأموميّة، تهجرها رويداً رويداً.

ضغطت رأسها بيديها وأغمضت عينيها كما لو كانت تمنع حقّاً أن يطيرَ عقلها منها مثل طيرٍ من قفص.

وجدتها روزا على تلك الحال، ظنّت أنّها تبكي فربّتت على كتفها برفق،

دعتها للنهوض والتنزّه معها، وتفاجأت أنّ السيّدةَ تنصاع لها وتُطيعها بما يشبه الإذعان.

ذهبتا على امتداد الشاطئ نحو مصبّ النهر. كانت خضرة البراح في بعض المناطق تبلغ الضفّة، بكلّ ما فيها من أثلٍ قصير وقُطْلبٍ وغارٍ بريّ، فتمتزج رائحتها برائحة الأعشاب البحريّة. ويبدو أنّ البحر واليابسة يتحادثان بلغة عطورهما، فيما تتّحد الحصى الناعمة كأنّها تريد أن تمنع مرور الإنسان، وأن تحافظ على نقاء العزلة الإلهيّة التي تعيشها الطبيعة.

توقّفت السيّدة والخادمة لالتقاط الأنفاس. حتّى الحصى على وطْءِ قدميها كانت تتّسم بالرقّة والألفة، فبعضها كان يبدو كالخبز المسحوب من الفرن توّاً، وأخرى كالبيض، والفواكه، والبقول، والمربّى، والأواني من العصر الحجريّ. بل وحتّى أجمات العوسج ذي الليلك الرماديّ النابت هنا وهناك وحيداً ما بين الحصى التي تشارك بطبيعتها، بدت نباتاتِ ما قبل تاريخيّة مولودةً من قبل أن يتراجع البحر وقد تحتَّمَت عليها الحياة الأبديّة.

استطاعت المرأتان خطوةً بخطوة أن تتجاوزا تلك الصحراء الحجريّة الصغيرة، وكانت الشابّةُ تساعد العجوز. وصلتا إلى حيث يعود الخطّ الرمليّ، بينما كانت المياه الراكدة والصافية تغطّي غوراً حريريّاً مذهّباً في منتهى التموُّج واللمعان.

تتكدّس الجلاميد الصخريّة الضخمة والسوداء شيئاً فشيئاً ما بين خضرة الأمواج، لتشبه أطلال قلاعٍ غارقة في البحر. تتمدّد على بعضها أشكالٌ حيوانيّةٌ لا ينقصها الوبر الذي تكفّلت بصنعه الطحالبُ اليابسة والإشنيّات. يلتفّ الموج حولها بحركةِ القطّ، غيوراً من ثباتها، ساعياً لنهشها في حين يتظاهر بمداعبتها.

وكانت المرأتان تتابعان المشيَ مفتونتين بجمال المكان. شعرت الأمّ ببعض الطمأنينة لأنّ آلامها تبدّدت مثل الأنفاس الكريهة التي تتلاشى في نقاوة تلك البيئة البكر.

وهكذا وصلتا إلى مصبّ النهر وجلستا عند مجراه الحصويّ.

سرير النهر عريض، ناصع البياض، لكنّ الماء يتدفّق شحيحاً في عدّة جداول تترافد في مصبٍّ أعرضَ من خطوتين بقليل. بدا أنّه ينبع من البحر عوضاً عن الانصباب فيه. تصاعد صدح الطيور من جُزُرِ الأسل، سائلاً وواهناً لكأنّ تحت الماء مصدره.

وفجأةً، في سحر الضوء الأزرق والآفاق الفضّيّة، انضمّ صوتٌ رفرفَ لسماعه قلبُ الأمّ فرحاً وحزناً: عزف الأكورديون. من أين يأتي؟ من البحر أم النهر؟ كان يبدو أنّ الرفيقين المغامرين مختبئان مثل الطيور في جُزُر الأسل الهشّة أو بين صخور الضفّة، يسخران هناك من توجّس مَن يبحث عنهما، لكنّ الأمّ كانت سعيدة بسماع صوت ابنها بتلك الطريقة على الأقلّ.

فأرادت أن تبقى هناك حالَما سمعت صوت الأكورديون، لكنّ العزف كان يبتعد كلّما هبطت الشمس، ويصمت مع سكوت الطيور، إلى أن توقّف كأنّه صوتٌ من الطبيعة، فعادت المرأتان نحو المنزل. وكانت الأمّ تشعر أنّها أقلّ اضطراباً، إذ بدا لها أنّ بيليا أحسَّ قلقها فشاركها إيّاه.

وبالفعل كان بيليا قد عاد، وبحث عنها، لكنّه كان جائعاً ولم يستطع العثور على مفتاح الخزانة التي تحوي المؤونة. خرج من جديد بعد أن أكل، ولم يبتعد كثيراً هذه المرّة. كانت روزا تراقبه فرأت أنّه ذاهبٌ نحو باحة البيت الأبيض، حيث اجتمع المستجّمون لحفلة رقص انضمّ إليها الأولاد والخادمات أيضاً.

وكان الأكورديون يعزف مقطوعة راقصة تناسب الجميع: «بولكا» صاخبة وحماسيّة تدعو الراقصين وتضحكهم.

هذا ما جعل بيليا يركض إلى الأعلى، قالت والدته في سرّها بما ينمّ عن غيرتها، ركض إلى الأعلى مثلما تهبّ العثّة نحو الضوء.

- فلننضمّ إليهم -قالت روزا- سيذهب مضيفونا إلى هناك أيضاً.

لكنّ أمّ بيليا لم تشأ الذهاب، كانت متعبة وحزينة، فظلّت عند النافذة الصغيرة في الغرفة التي تشرف على الباحة المضاءة بالقمر والظلال التي تتواثب كالأرانب. ذهب كلٌّ مَن في المنزل إلى الحفلة، بمن فيهم روزا. أمّا هي فظلّت وحيدة، مثل القمر فوق البحر، تعدّ الأيّام التي تفصلها عن العودة الحميدة إلى دارها. إذ إنّ يَدَ بيليا قد شُفيَت، تيبّس الجرحُ بفعل البحر والشمس. ولكنْ، لماذا ليست سعيدة بذلك؟ كان ينتابها حدسٌ مشؤوم بوقوع مصائب أخرى، فضلاً عن ذلك الهاجس الغامض الذي يسكن أعماق قلبها، ذلك الداء الخفيّ الذي يشتدّ وطأةً يوماً بعد يوم.

وهكذا بدا لها أنّها لم تتعجّب حين عادت روزا في ساعة متأخّرة من الليل وما زالت متحمّسة من فرط ما رقصت، وقالت لها إنّ بيليا يخطّط مع فتية البيت الأبيض إيّاه للذهاب إلى مغارة الحوريّة في الغد.

- وسيَصحبون معهم ذلك الإفريقيّ أيضاً مع أورغنه الصغير، ليلطِّف أجواء الرحلة. لا يريدون اصطحاب أيٍّ من النساء، وإلّا كنتُ سأرافقهم أنا أيضاً.

لم تنبس الأمّ بكلمة، لكنّها انتظرت أن يعود بيليا: كان دمها يفور جرّاء غضِبٍ لم تعهده من قبل، فشعرت أنّ لها القدرة على ضرب ابنها، ولجمه مثلما تُلجَم الفرسُ الهائجة.

وكأنّ بيليا توقَّعَ تلك الزوبعة، فحاول أن يدخلَ خلسة، لكنّها كانت

تراه من النافذة وهو يتقدّم، وتحدِّد آثار قدميه على الرمال. فرآها ورفع رأسه بجسارة: كانت ترى التمرّد ماثلاً حتّى في شعره المجعّد الذي صبغه ضياء القمر بالفضّيّ: كأنّه اتّسم بما يميّز شعر العازف، فصار أشبَهَ بشعر الشيطان ذي القرون. لكنّها شعرت بقدرتها على حلقه كلّيّاً مثلما كانت تفعل به عندما كان صغيراً لدرء القُمّل الذي يصيب أولاد الديرة الأشقياء.

واجهته ما إن دخل:

- هذه هي الليلة الثانية التي تتأخّر فيها بالعودة. سامحتك عن الأولى، أمّا الثانية فلا. وإن كنتَ تنوي فعلَها للمرّة الثالثة فسوف تَبيت في الخارج.

- أفضل. -قال هامساً.

- أفضل، حقّاً! لكنّي سأخبرك بنيّتي العودة إلى الدار حالاً، سيأتي أبوك ليستعيدك.

ردّد بابتسامةٍ هازئة أغضبتها:

- أفضل.

اقتربت منه حينذاك، ونظرت إليه بعينين ساخطتين.

- ردِّد تلك الكلمة ثانيةً! ردِّدها، أيّها الوقح السفيه! وحذارِ أن تذهب في الغد من دون إذني. حذارِ، يا بيليا، لأنّي أقدر على فعل كلّ شيء.

- اهدئي، اهدئي -قال بنبرةٍ ما زالت مشوبةً بالاستهزاء، لكنّ أمَّه أحسّت أنّه يواري شراسةً خلف هدوئه هذا، وآثرت لو أنّه رفع صوته وتمرّد علناً.

- عليكَ أن تخجل من نفسك لأنّك تصاحب ذلك المتشرّدَ الذي تتجسّد فيه المَفْسَدَة. فإن كان في غضون يومين قد أحالك مثله، دعيّاً مخادعاً، فقد يسوقك في الثالث إلى التهلكة. ما زلتَ ولداً لا

يفقه شيئاً، سوف تندم يوماً ما لأنّك عصيت أمّك وأنت في هذه السنّ، ولكنْ سيفوتك الأوان وسيعاقبك الله.

- الله يعاقبني أساساً -غمغمَ رغماً عن نفسه، بصوتٍ أجشّ لا يبدو أنّه صوته.

فإذا الأمُّ ارتعشت بألم وما عرفت إن كان مصدره السخط أم الرعب: خُيِّلَ إليها أنّها تسمع صوتاً غامضاً، نابعاً من حنجرة بيليا. أجل، لكنّه يتصاعد من سحيقٍ رهيب، كما لو أنّ الشيطانَ مسَّهُ أو كأنّ الشيطانَ ذاته الذي يتكلّم.

وتزاحمت في حنجرتها ألف كلمةٍ مريرة لكنّها توقّفت فيما يشبه الغصّة الخانقة. خشيت أنّه إذا استرسلت في تأنيبه قد ينطق بكلمات سفيهة أخرى تكشف جذورَ البلوى على مسامعها ومسامع النسوة اللواتي كُنَّ يتنصّتن من الغرف الأخرى.

كفّت عن الكلام، لا بل هرعت للاستلقاء على سريرها الصغير المجانب لسرير روزا، وأقفلت فمها بيدها لتكتم الشهقات المتشنّجة التي أرادت أن توسّع ألَمها بها على الأقلّ.

حاولت روزا أن تهوِّن عليها بعض الوقت، فحدّثتها بصوتٍ هامس، نادمةً على تأليب مواجعها رغماً عنها. ثمّ سكتت وغفت، وكانت في خلال نومها تضحك وتتقلّب إلى أن جفلت واستيقظت وقالت:

- رأيتُ أنّني في القارب ذاهبةٌ إلى المغارة.

لم تردّ السيّدة، بدت أنّها نائمة، لكنّ عينيها المغمضتين كانتا تنفتحان على فراغ أكثر تجمُّداً وهيجاناً من فراغ البحر في الليل. ما عاد يفارقها الخوف المتوجّس من كارثةٍ وشيكة، وكانت تحاول عبثاً أن تُمنطِق فكرها وأن تُطمئِن نفسها: أحسّت أنّ الكارثة واقعةٌ في وجدانها وأنّ لا أحد يقدر

على الحيلولة من دون استفحالها، وكادت تشكّ حتّى بمقدرة الله.

غفت قرابة الفجر، تهيّأ لها أنّها تسمع الأكورديون، يجود بلحنٍ جديدٍ وعذب، بعلامةٍ واحدة لكأنّها نغمة فلوت كانت تهدّئ من روعها عوضاً عن إقلاقها. وكان بيليا هو الذي يعزف، ويحدّثها بصوته القديم البريء ويعيد على مسامعها التهويدة التي كانت تشدوها له في طفولته.

وعندما استيقظت، نهضت لتجدَ أنّ بيليا قد خرج. قال أحد أبناء المضيف إنّه رآه في قاربٍ صحبة فتية آخرين من البيت الأبيض إضافةً إلى عازف الأكورديون.

- كان القمر لا يزال مضيئاً، وقد اتّجهوا صوب المغارة.

اصفرّ وجه الأمّ من الغضب، وذهبت لتجلس في مكانها المعتاد على الرمال التي ما زالت تحفظ بصمات جسد بيليا، وبكت كما لو أنّ هناك قبره.

وعبثاً حاول المضيفون طمأنتها.

- إنّهم شبّان، ويجب أن نتسامحَ معهم. ثمّ إنّه نهار صافٍ، ولا وجود لأيّ خطورة. اعتبريه أنّه في البستان يلعب.

- ليس هذا ما يشغلني، ليس هذا -قالت.

- نتفهّم موقفكِ، فهو ابنكِ الوحيد، ولا يزال أصغر من العصيان بهذه الطريقة! هذه دلالةٌ على ضحالة المحبّة.

- ليس هذا ما يشغلني، ليس هذا -ردّدت ثانيةً، وفكّرت أنّ أَلَمها الأعمق يتمثّل بما بدا لها أنّها هي التي لم تعد تحبّ ابنها.

*

- سترين -باحت لروزا عندما باتتا بمفردهما -سأحافظ على رزانتي

الآن، ولن أفتعل فضيحة. لن أوبّخَهُ على شيء، ذلك أنّني أخشى أن يتمادى. ولكن ما إن نعُدْ إلى الدار لن أتوجّهَ إليه بكلمة، سأطعمه وأُشرِبه، سأعتني به وأؤدّي واجبي تجاهه، لكنّه من اليوم فصاعداً صار ميّتاً بالنسبة إليّ، ولم يعد ابني.

بدا أنّ البحرَ والسماء شعرا بالاستياء من تلك الكلمات. تصاعدت سُحُبٌ ملبّدةٌ ومكفهرّة من البحر، اهتاج الهواء وقلّدته المياه. وانطلقت طيور النوّ المشؤومة من الغيوم مثلما تنطلق من أعشاشها.

- بيليا، بيليا، يا قلبي -سارعت الأمّ إلى الصراخ.

فأجابها صوت البحر المتوعّد، ثمّ هبّت الريح عاصفة، ودوّى الرعد، وتبارت أشكالُ الضوضاء الجهنّميّة مَن يسبق إلى بثّ الذعر في قلبها.

كانت تصيخ السمع لعلّها تميّز عزف الأكورديون، ذلك الصوت الذي بدا لها آنذاك أحسن صوتٍ في الأرض، فهو الوحيد القادر على استرجاع الفرحة والصفاء إلى الكون بعدما أربكه غضبُ الربّ.

- ألا يمكننا إرسال قاربٍ للبحث عنه؟ -سألت مضيفَها- إنّني مستعدّة لدفع سائر النفقات مهما علت.

وأخذت تنزع الخواتم من أصابعها في حال لن تكفي النقود. وعبثاً حاولت النسوة طمأنتها:

- لا يوجد خطر: إذا كان الفتية لا يزالون في المغارة، فكأنّهم في داخل كنيسة؛ أو ربّما التجؤوا إلى الشاطئ باكراً وسيعودون على الأقدام.

وكانت في الأثناء تنظر على امتداد الشاطئ الذي جلدته الأمطار والرِيح، لكنّ الشاطئَ مقفرٌ، مثلما انعدم الموج في لحظة واحدة. وكانت ألوان البحر تتراوح بين الأخضر والرماديّ، وتتواثب فيه غيلانٌ طويلة بيضاء، تنقضّ على الصخور بغضبٍ وتصل إلى المنزل أيضاً، حتّى إنّ

النساء أغلقن الباب لصدّ رذاذ اللعاب المتناثر.

لم تبرح الأمّ من عند النافذة الصغيرة، لم تصرخ ولم تتذمّر، إذ أدركت عدم الجدوى من هذا، لكنّها أحسّت أنّ روحها تفارقها من عينيها المثبّتتين نحو البحر. وكانت روزا تنظر إليها وترى أنّ تينك العينين لا تغمضان حتّى على نار البروق الباهرة، وأنّ وجه سيّدتها ينحل لحظةً بعد لحظة كمَن يشقى طيلة أعوام.

خيّم على المنزل صمتُ الموت: سكتت النساء وأولادهنّ احتراماً لقلق الأمّ، ناهيك بذعرهم من العاصفة التي باغتت الأجواء بغضبٍ غير معهود وطال أمدها. كانت الصواعق تسقط كالصواريخ على صخور الشطّ التي انشقّت إحداها، فيما كانت الدلافين الداكنة الشبيهة بالخنازير تسبح في الزبد الأبيض كما لو أنّها تريد الالتجاء إلى اليابسة لئلا تغلبها العاصفة.

ذُعِرت الأمّ منها بقدر ما أصابها الفزع من كلّ الغيلان الأخرى: يا ربّاه، يا ربّاه، بمن أستغيث؟ ولم تنتبه أنّها كانت توجّه سؤالها إلى الله.

وفي لحظةٍ واحدة أحسّت أنّها تنتقل إلى مكانٍ بعيد، إلى الكنيسة حيث عُمِّدَ بيليا: ارتقى ابتهالٌ دينيٌّ تؤدّيه نسوةٌ وأطفالٌ، مترافقٌ مع أنغام الأورغن، من بين ضجيج العاصفة، وهدّأ من روعها. كان أهل المضيف في الغرفة المجاورة يؤدّون دعاء الاستغفار. فتحت روزا الباب، وجثمت عند العتبة وانضمّت إلى الدعاء. وسرعان ما نهضت مذعورةً لأنّ سيّدتها قد أغمي عليها وسقطت أرضاً.

*

جُنّ جنون العاصفة طوال الليل: لم يعد بيليا، لكنّ الله أعان المرأة

المبتلاة بإفقادها الحواسّ.

ظلّت هامدةً بلا وعيٍ بعد إغماءٍ طويل، ثمّ بدأت بالهذيان.

أخمد الفجر من غلواء العاصفة بينما واصل البحر هيجانه العنيد لكأنّه يأبى التهدئة أبداً. فخطر في بال روزا أن تهرع إلى القرية لإبلاغ المضيف بما جرى في المنزل وإرسال برقيّة إلى السيّد.

وكانت الأمّ في هذيانها تستوعب كلَّ شيء بطريقةٍ مضطربة. ودّت أن تمنع الفتاة من التحرّك. ومن جهة أخرى لم تشعر بالقدرة على تحمُّل المصيبة بمفردها، وكانت واثقة أنّ زوجها سيعيد الأمور إلى نصابها. سوى أنّها تأسّفت على تأنيبه المحتمل لها على عجزها عن كبح جماح بيليا بسبب تراخيها ومحبّتها الأموميّة التي أساءت فهمها.

لكنّ ما زال لديها وقتٌ هي أيضاً لتتصرّف. ما زال لديها وقت. فلا ينبغي للأمّ أن تيأس من مصير ابنها حتّى تراه ميتاً في حضنها، ولا ينبغي لها أن تيأس حينذاك طالما أنّ المحبّة الأموميّة تشبه محبّة المسيح في قدرته على إحياء الموتى.

لمعت فكرةٌ في رأسها، أخمدت غليانها مثلما فعل الضوء بالعاصفة: أن تذهب إلى البحث عن بيليا.

كان المضيفون راقدين بعد ليلةٍ طويلة أمضوها ساهرين. ارتدت ثيابها من دون أن تُصدِرَ أيَّ نأمة، وأخذت المنديل الذي كانت تلفّ به النقود. بدا لها أنّها أصبحت رشيقةً وخفيفة الحركة على حين غرّة، كأنّها فقدت وزن ليالي الأرق والقلق التي نهشت لحمها، غير أنّها ما زالت تشعر باضطراب الذهن، فالأشياء ترتجف من حولها قليلاً. وحين خرجت إلى الشاطئ تملّكها انطباعٌ أنّ قوسَ البحر يتحرّك ويتنقّل باستمرار، بل والسماء تترنّح بعض الشيء وما زالت مبعثرةً برغوة الغيوم، لا شمس فيها، وصفاؤها لا

يوحي إلّا بضياءٍ شتويٍّ بارد.

بحثت عن قاربٍ يحملها إلى المغارة. كانت القوارب كلّها مقابل البيت الأبيض الهادئ، وربّما من الممكن استئجار أحدها. أجل، كلُّ شيء سهل: فذلك الخطّ من الساحل الأملس الذي صقله الموج يعدها بأن تمشي عليه بخفّة. وكانت المياه تبسط على جلدة الرمال تطريزةً من الزبد تحت أقدام أمٍّ ذاهبةٍ إلى البحث عن فلذة كبدها. أشار إليها صيّاد المحار العجوز المستلقي بجانب قاربه المبلّل بالانحناء ليعرض عليها خدماته بصوتٍ هامس.

- باركك الله -غمغمت -فلنذهب إلى المغارة فوراً.

أركبها القارب، ثمّ دفعه في الماء، برفق، كما لو أنّ القارب من ورق، ثمّ صعد عليه. كان العجوز لا يزال في كامل همّته، معصماه مكتنزان، ويداه تبدوان مصنوعتين من جلدٍ ثخين، ويشبه المضيف العجوز الطيّب والبشوش إلى حدٍّ غريب، بينما كان قاربه يتّسم بالجنائزيّة، مطليّاً بالقطران الأسود كلّيّاً ومزوّداً بصليب وقنديل مطفأ مثبّتين على الحيزوم.

تهادى القارب في البدء بوطأةٍ شديدة ما بين موجتين يعتليهما الزبد، لسان حاله يقول كلّا، كلّا، لا أريد التقدّم. ثمّ راح يمضي بدفع المجدافين، ولكنْ على مضض، مترنّحاً ومائلاً إلى أحد جانبيه، يحاول رمي المرأة المتمسّكة بعضد المقعد.

راودَها انطباعٌ بأنّ خطر الغرق لا ينجم عن البحر بل عن القارب: لتلك الخشبة السوداء الجنائزيّة صفةٌ شيطانيّة، فهي شرّيرة، ومشتقّة من شجرة البلاء. ومع ذلك لم تعد تشعر بالخوف، إنّما بضيقٍ يجتاح جسمها كلّه، وحرقةٍ لا تسكّنها رياح البحر ورطوبته.

بطريقةٍ أو بأخرى، كان القارب يمضي، بينما كان العجوز يجاهد بمجدافيه ويتوجّه للمرأة بابتسامة اللطف الذي يساوي الحبَّ أو يكاد،

فتبثّ الشجاعة في قلب المرأة لكنّها تثير في نفسها شعوراً بالاشمئزاز أيضاً.
نما في ذهنها شكٌّ بأنّها تحلم، وأنّها لا تزال طريحة الفراش الصغير مصابةً بالهذيان والحمّى. ولكنْ لا، إنّها مستيقظة تماماً، وواضحةٌ هي الأشياء التي تراها على الرغم ممّا يعتريها من غموض. ها هو البحر، بأمواجه الكبيرة والمتدحرجة التي يقفز عنها القاربُ بخفّة، وها هي اليابسة ليست بعيدة، بخطوطها الساحليّة المتقطّعة تحت السماء الحزينة التي تغيّبت عنها الشمس.
وفجأةً يبرز الشاطئ، وينتأ الرعن الأسود في البحر مثل حيزوم سفينة عملاقة وجانحة: ويبدو الصخر المصقول معدناً برّاقاً ومتماسكاً، سوى أنّ فتحةً مقوّسةً تلامسها المياه بالكاد وتنفذ إليها وتخرج منها باستمرار.
العجوز يتّجه نحو ذلك القوس: الأمواج تصدّ القارب، وترتفع تحته بلا هوادة، لكنّ القارب الآن مفعمٌ بحسّ التمرّد على ذلك الغضب العديم الإحساس، ويتقدّم بقوّةٍ ويطفو، ويثب كالدلافين فوق الانتفاخ الزيتيّ للمياه، عازماً على ولوج فتحة المغارة. إلّا أنّ ثمّة ما يشبه النهر ينبع من الداخل، فيتولّد عن تصادم الموج تيّارٌ دوّاميٌّ يسعى إلى ابتلاع القارب لكي يدور فيه حول نفسه ويغرق من دون حتّى أن ينقلب.
يراود المرأةَ شعورٌ بالفزع: تبدو فتحة المغارة لها فوّهة الجحيم، وما الصيّاد العجوز إلّا الشيطان المكلَّف بنقل الأرواح.
«إنّي أموت -تفكّر- لا محالة. أموت ممّا آلمني به ولدي بعصيانه واختفائه، وها هو الله يرسلني الآن إلى مكان العذاب. ولكنْ، ما الإثم الذي ارتكبته؟»
تعاودها الذاكرةُ بكلِّ خطاياها، لاسيّما إخفاقها في منع زوجها من المضيّ في فعلته المجحفة، وتتّضح الخطايا في مرآة ضميرها: لكنّها حتّى

في تلك اللحظة السامية تحافظ على هدوئها وتسلِّم بقضاء الله ومشيئته وتشعر أنّ هذه هي الطريقة الوحيدة لتحمُّل عذابات جهنّم.

يسطع قبالتها نورٌ حيٌّ من خلف ظلمات الموت: ترى ابنها من جديد وتجتمع به.

- حقَّت مشيئتك يا ربّ، حقَّت مشيئتك يا ربّ.

أغمضت عينيها كي لا ترى رعب المياه. وبدا لها أنّ القارب يدور حول نفسه مثل محور عجلة ويغرق في هاوية البحر الباردة رويداً رويداً، ثمّ أحسّت بارتطام مباغتٍ بشيءٍ متين يليه سكون.

- حقَّت مشيئتكَ يا ربّ، حقَّت مشيئتك يا ربّ.

- نحن في داخل المغارة -قال الرجل.

فتحت عينيها ثانيةً ورأت أنّها في أغرب وأجمل مكانٍ لم تتخيّل مثله على الإطلاق.

كان القارب متوقّفاً تحت قنطرةٍ من المرمر الأسود مسنودةٍ بأعمدةٍ تبدو أزواجاً من الأفاعي المبرومة. وكان الرمل والحصى تحت المياه المنخفضة والشفيفة يلمع أكثر ممّا لو كان ذهباً. وما بعد فتحة المغارة ومدخلها بدا البحر الهائج بعيداً ومسالماً. لكنّ أشدَّ ما أثار عجبها هو المغارة التي تنفتح مثل نفقٍ لا ينتهي، مرصوفةً بالحصى الملوّن ومسقوفةً بالقوس المزيّن بالنوازل البرّاقة. حيثما وصل ضوءُ الفتحة تألّقَ كلُّ شيء، بحجر الأوبال المتقزّح، ثمّ تتدرّج الألوان في عتمة البعيد، سوى أنّ بعض الضياء ما انفكّ يسطع في قلب الظلمة، كما لو أنّه حجرٌ مشعٌّ من تلقاء نفسه.

مرّ الإحساس الأوّل بالمفاجأة فلاحظت المرأة ألّا وجود لقوارب أخرى، أي لا يوجد أحدٌ في المغارة.

- لا يهمّ -قال العجوز وهو يقفز عن القارب ويربطه بحجر على

الشطّ- عندما يرى النوتيّ البحرَ مرتفعاً يعود إلى الخلف، ويترك الغجر في الداخل، ثمّ يرجع لاستعادتهم حين يصبح الخروج ممكناً.

مدّ يده إلى المرأة، وعندما نزلت ساعدها على عبور المساحة الحصويّة الأولى من المغارة.

- لا بدّ أنّ هناك مشعلاً، سنرى الآن -قال وهو يدنو من الجدار وينبش ما بين نتوءات الصخور. وجد مشعلاً فهزَّه ليضيئه ويسرّع التهاب الشعلة. وسرعان ما راود المرأة انطباعٌ أنّها داخل كنيسةٍ جوفيّة، في سردابٍ تكدّست فيه كلّ ثروات الأرض وكماليّاتها. آلاف الشمعدانات الدُريّة تتدلّى من القوس، أشكالها محبّبةٌ مثل عناقيد العنب، وأزهار الوستارية، وورودٍ أخرى وثمارٍ غرائبيّة، تتلألأ جميعها بالندى. محاريب زجاجيّةٌ لؤلؤيّةٌ محفورةٌ في الجدران، تحوي أصناماً عجائبيّة، وما بين المحراب والآخر يتألّق تماوجُ المنقوشات النافرة الخياليّة التي تُجسّد شخصيّاتٍ مجنّحة وأشجاراً وزواحف وطيوراً، وكلّها ترنو صوب عمق المغارة، لكأنّها تتحرّك على ضياء المشعل وتغيّرِ أشكالها.

كاد عجب المرأة ينسيها سبب وجودها في المكان: فأخذت تتوقّف بين الفينة والأخرى وترشم الصليب، ويعاودها الشكُّ في أنّها ميّتةٌ وجدت نفسها في ديار الآخِرة.

قطعَا الحيّز الأوّل من النفق الذي أفضى بهما إلى صالةٍ تسندها أعمدة شبيهة بتلك التي تسند القنطرة، لكنّ الأرضيّة باتت رمليّة، من رملٍ أسود فضّيّ يومض على ضوء المشعل.

وها إنّ المرأة تتوقّف وتأبى المضيّ قدماً وتفلت منها صيحة خفيفة: رأت عند قدميها شيئاً يذكّرها بحياةٍ سابقة، والنور، وفرحة الأرض: آثار

قدمٍ حسِبتها لبيليا. لكنّ الأثر متوجّهٌ نحو مخرج المغارة، ما يعني أنّ بيليا قد خرج. لا جدوى إذن من جمال المكان الذي لا يكون فيه ابنها، ولا طائل من البحث عنه هناك بين لغز الصخور إذا كان يعوم كموجةٍ بين الأمواج في لغز المياه.

- فلنذهب، فلنذهب، ما الذي أبحث عنه هنا؟ فلنذهب إلى البحث عنه في البحر. أريد أن أجده، حيّاً كان أم ميتّاً.

أخفض العجوزُ المشعلَ ليضيء به كلّ أرضيّة المغارة: فرأت حينذاك الكثير الكثير من آثار الأقدام، منها ما يدخل ومنها ما يخرج، ومنها ما يدور حولها.

- عندما يُرغَم الغجر على المكوث في الداخل، يتجمّعون معظم الوقت في آخِر المغارة -قال العجوز- في صالةٍ رحبة حيث من الممكن الاستلقاء والنوم على المقاعد الحجريّة العريضة. ومن الوارد أنّ ابنك ورفاقه هناك في الداخل. فلنذهب.

ذهبا. كانت تصيخ السمع لعلّها تسمع صوت بيليا أو عزف الأكورديون على الأقلّ. إلّا أنّه لا ردَّ على أمنيّتها سوى صوت البحر. وكلّما تقدّمت بلا اكتراثٍ بروائع المكان الخياليّة، بدا لها أنّ ذلك الصوت آتٍ من عمق المغارة بوقعٍ رتيبٍ وعذب لا يهدّئ عذابها بقدر ما يحوِّله إلى عذابٍ دينيّ.

أهذا هو غناء الحوريّة الذي يجذب البحّارة، الذي يجعلهم يتحدّون مخاطر الموت لبلوغ الحلم الناجم عنه؟

«فإن كان هذا -قالت في سرّها- فإنّه ليس بغناء الفرح، إنّما الألم. إنّه مثل ترتيل مزامير القساوسة الذي يقودنا إلى حقل الموتى ويسرد علينا أنّ كلّ ما في الحياة باطلٌ، وكلّ ما فيها زائف».

خُيِّلَ إليها أنّها تسمع جواباً: -كلُّ شيء باطل، كلُّ شيء زائف، حتّى محبّة الولد لأمّه التي أنجبته بمخاضٍ عسير.

ومع ذلك ما فتئت تبحث عن ابنها بيليا، وغدت تمتعض من انعكاس الحجر، وغرائبيّة النوازل، وأقواس المغارة وأعمدتها: صارت تبدو لها على طبيعتها، زوائد صخريّة، وملحاً بحرياً مستقطراً.

بل وحتّى القاعة الأخيرة الشهيرة، التي لا بدّ أن تكون مثل كهف كيركي، بدت لها مدفناً كبيراً مرفوعاً بمصبّات حجريّة سوداء شبيهة بالفحم. وثمّة قطرة ماء عذب تقطر من مركز القوس لتسقط في حوضٍ رخاميّ. لكنّ هذا الحوض من صنع البشر، وتلك القطرة التي مثلَ الأمل لا تنضب هي الحقيقة الوحيدة، والعزاء الحقيقيّ والوحيد للناجين العطاش.

حول ذلك المكان الأسود والرطب، ثمّة ألواحٌ حجريّة عريضة، ينام عليها الغجر المرغمون على المبيت في المغارة وفقاً لأقوال العجوز. استكشفتها الأمُّ لوحاً لوحاً وهي تحرّك المشعل في كلّ الاتّجاهات، بحيث لم تفلت منها أيُّ زاوية. كلُّ الألواح فارغة. هوت على أحدها عندئذ، وشعرت أنّها تموت.

*

لم يكن بيليا قد عاد بعد، حين وصل زيبيديو في وقتٍ لاحق. كانت زوجته ممدّدة على السرير، هامدةً وشاحبةً وباردة، وعيناها جاحظتين، وفمِها معوج من أحد جانبيه، ما أضفى عليها مظهراً عابساً ومرعباً. ولم يكن زيبيديو قلقاً بشأن غياب ابنه بقدر ما كان عليه برؤية ذلك الوجه، بدا له أنّه يمثّل وجه العقاب.

- ماريّا -غمغم عند فمها -سنجتاز كلّ الصعاب، سترين، سنتجاوزها كلّها.

لم تردّ المرأة، لم تتحرّك. فنهض ليفسح المجال للطبيب الذي صحبه معه.

عايـن الطبيـب المريضـة بسرعةٍ بدت لزيبيديو لامباليـة، ووجـد أنّ حرارتها مرتفعة على الرغم من انخفاض النبض وبرودة المعصم.

«كم تخدع نفسك أيّها الحمار -قال زيبيديو في سرّه عن الطبيب- لقد فقدت زوجتي رشدها من الألم، وأنت تكاد تقول إنّها أصيبت بنزلة برد بسيطة».

وحين لم يجرؤ على البوح بكامل شكّه الرهيب، أي أنّ زوجته قد جُنّت، حاول نقله إلى الطبيب:

- لم تكن ماريّا كاتيرينا بخير منذ أن جاءت إلى هنا، وقد انتابها حزنٌ عميق منذ اليوم الأوّل، واعتراها اضطرابٌ غير مبرّر: لقد ارتكبنا حماقةً في إخراجها من الدار، وهي التي لا تخرج أبداً، وسبّبنا لها هذه الآلام القاتلة.

كان الطبيب يستجوب النساء، روت له الخادمة كيف أنّ سيّدتها كادت تموت حقّاً من قلقها في الأيّام الأخيرة بسبب غيابات بيليا وعصيانه.

- لقد كانت مضطربة منذ آخر زيارة لي -استأنف زيبيديو ممتعضاً من شرود الطبيب -كانت عيناها شاخصتين وذهنها مشوَّشاً.

فأدرك الطبيب أخيراً، وافترّ عن بسمة لئيمة.

- جميعكم مجانين نوعاً ما -قال- وأنـت مجنون أكثر من أهلك جميعاً. وأنا مجنونٌ أيضاً لأنّي سمحتُ لك باقتيادي، فما تحقّقتُ إلّا من ظاهـرة هستيريا بسيطة. هل تريـد سماع رأيي؟ زوجتـك مصابة

بالهستيريا، مثل كلّ النساء. ما إن يعُدْ ذلك الوغد الصغير، ابنك، إلى المنزل ستصبح أحسن حالاً منّي ومنك. عليك أن تنشغل به بالأحرى، وحاول أن تجلده جيّداً إبّان عودته.

تدخّلت زوجة المضيف:

- لا داعي للقلق كثيراً بشأن عودة الفتى: لم يمرّ إلّا يومان منذ أن اختفى هو ورفاقه، والبحر ما زال مائجاً، ومن الواضح أنّهم لا يستطيعون الخروج من المغارة. ذات مرّة، ظلّ حفيدي مع غجرٍ آخرين خمسة أيّام بلياليها عالقين هناك.

- بيليا لم يعد في المغارة -قال صوتٌ حنجريٌّ كأنّه صوت مقهاق- لقد كنتُ هناك بنفسي، في الباكر من صباح اليوم، ولم أجده.

كانت المريضة هي التي تكلّمت، من دون أن تتحرّك، ومن دون أن تغمض عينيها القاتمتين كأعين الغرقى.

أصدرت روزا صيحة خفيفة، وانحنى زيبيديو ثانيةً على زوجته لاستنطاقها مزيداً.

- لا بدّ أنّها خرجت حين لم أكن هنا -قالت الفتاة مذعورةً- وبالفعل لقد وجدتُ حذاءها مبلّلاً بالكامل، ولم تتحدّث خلال النهار إلّا عن تلك الرحلة.

وكان ينظر إلى المضيفين بعينٍ صارمة. لم ينتبه المضيفون إلى شيء، لكنّهم لم يؤكّدوا بالضبط أنّ المرأة لم تخرج.

رفع الطبيب كتفيه، وهو ينظر حوله باستياء. كان متعباً وجائعاً، ينتظر لحظةِ الهدوء ليطلب الطعام والمنامة. ولم تكن المريضة تشغل باله بقدر ما شغله زيبيديو، لأنّه خلال الرحلة لم يفعل شيئاً سوى الهذر عن ميراث أخيه وعن شرور ليا التي كان يعزو إلى شعوذتها كلَّ مصائب عائلته. وكان

يستنصح الطبيبَ عن الوسيلة التي تطيِّب خاطر تلك المرأة.

- حسناً -كان ردُّ الطبيب- تبرَّعْ بالميراث لليا وسترى كيف يطيب خاطرها.

- إنّي مستعدٌّ لكلّ شيء، أقسم لك على ذلك يا أنطونينو.

- تمهَّلْ إذن، عليك أن تحاسبني أوّلاً.

ففتح زيبيديو المحفظة وعرض عليه كلَّ ما تحتويه: كان مستعدّاً حتّى لرهن قميصه، بغية إنقاذ أيّ شيء من خراب بيته.

- ماريّا، ماريّا -قال آنذاك لزوجته وهو يمرّر يده على وجهها كمن يسعى لإعادة تركيب ملامحه- قولي لي كيف استطعتِ الذهاب إلى المغارة لعلّي أذهب إلى هناك أنا أيضاً. ربّما لم تبحثي جيّداً. بيليا لا يزال في الداخل. فلقد أمضى أحد أحفاد مضيفتنا مع رفاقه خمسة أيّام بحالها.

- فتّشْ عن صيّاد المحار -غمغمت الزوجة- هو الوحيد القادر على اقتيادك لأنّ قاربه مزوّدٌ بصليب. سيقتادك إلى المطهر، الذي أنا فيه أساساً.

نهض، ووجهه مستعرٌ من الغضب، كما لو أنّه احترق باللهب، ثمّ انحنى على نفسه وبدا أنّه سيسقط على السرير الذي جثم على ركبتيه أمامه تدريجيّاً.

- ربّاه يا إلهي -قال بنبرةٍ بسيطة ومتأثّرة أربكت الحاضرين أكثر ممّا لو صاح وتلا- إنّني آثمٌ، وأنت تعرف خطاياي، ولكنّي أرجوك ألّا تحمِّل الأبرياء وزري يا الله. لقد أكلتُ مال يتيم ظلماً، وقد أنزلتَ بي عذابك. فها أنا أعلن أمام هؤلاء المسيحيّين أنّي سأردّ ما استلبتُه فوراً، وعسى أنّ تَوْبتي تنقذ ابني وزوجتي من التهلكة.

- وأنا كنتُ أعلم -قالت الزوجة بصوت النعاس، من دون أن تتحرّك.
- كلّا، لا تعلمين -اعترض زيبيديو فوراً- ربّما كنتِ ترتابين، لكنّكِ لا تعلمين. لا أحد كان يعلم، لكنّ الجميع كانوا يرتابون، فالشرّ لا يمكن إخفاؤه.

كان الطبيب يستمع ويبتسم هازئاً. إذ إنّه برأسه الكبيرة كالماعز، بين تلك الوجوه المهتمّة بتوبة زيبيديو وشجاعته والمرتبكة منها، أكثر ممّا ارتبكت من اعترافه بالخطيئة واهتمّت، كان يبدو تجسيداً لروح الضلال.

- قل لي يا زيبيديو -قال بتهكّمٍ حادّ- هل أنت واثقٌ من هرائك هذا؟ أم إنّنا مضطرون إلى رشقكَ بدلوٍ من الماء على رأسك؟

نزع زيبيديو قبّعته بكلّ تواضع، كأنّه سيتلقّى دلو الماء بالفعل.

- إن كنتُ مجنوناً -قال ليقمع كبرياءه الطبيعيّة- فإنّ هذه مشيئة الله. فهذا هو عقابي أيضاً. ولكنْ كلّا، لستُ مجنوناً. عندما احتُضر أخي ساعةَ الموت، نزعتُ عنه ثيابه ومدّدته على السرير، وأخرجتُ من جيبه الوصيّة التي تركَ بموجبها أملاكه لابنه سالڤاتوري.
- وهل أنت واثقٌ من أنّه ابنه؟ ماذا لو قلت لك إنّه ابني؟

التفت الجميع بأنظارهم نحو الطبيب، بل وحتّى المريضة نفسها رفعت رأسها وجحظت عيناها.

انتاب زيبيديو شعورٌ بالدوخة: تذكّر الحقدَ الذي تضمره ليا للطبيب، وبعضَ الشبه بين ملامح الطبيب وملامح الفتى. ما الذي يمنع من أن يكون الكلام صحيحاً؟ فلطالما تمنّى بكلّ جنونٍ أن يكون الأمر كذلك: أن يكون سالڤاتوري ابن رجلٍ آخر، وأن يكون ما تبقّى ناجماً عن إيهام ضميره، لا بل وأن يكون الله ذاته قد ساقه إلى ما ظنَّ أنّه جورٌ وكان في الحقيقة عدلاً. ثمّ هزّ رأسه من دون أن يرفعها، كلّا، إنّ الشيطان يغويه

عن طريق الطبيب.

- بإمكانك أن تسخر منّي يا أنطونينو، فلقد أدليتَ بمثل هذه السخرية مراراً. أذكر أنّك ادّعيتَ افتعالك لظهور القدّيس أنطون على مرأى تلك المسكينة الغبيّة، وأشياء أخرى من هذا القبيل. ولكن لا يهمّ، فلقد ارتكبتُ الشرَّ وأنا موقنٌ بأنّني أرتكبه، وأريد أن أصلح غلطتي. أنتم جميعكم هنا شهودٌ عليّ: إن لم أُعِدْ تسجيل كلّ الأملاك باسم سالڤاتوري خلال ثمانية أيّام، فلكم أن تدَّعوا عليَّ عند القاضي بوصفي آخِرَ اللصوص، وعسى أن يمعن الله في عقابي.

- هذا ما يسمّى كلاماً واضحاً مع الخالق، والآن وقد صار بينكما محادثات، فانهض واهدأ -قال الطبيب وهو يجذبه من ذراعه، بينما النساء يبكين.

انصاع زيبيديو، نهض بعينين مغمضتين مثل طفلٍ معاقَب، ونشّف العرق عن جبينه. وكان في الحقيقة يشعر ببعض الارتياح لأنّه تقيّأ الأفعى التي كانت تنهش سريرته منذ أمدٍ طويل. أهذا وهمٌ أم واقع؟ بدا له أنّ وجه زوجته يتماثل للشفاء كذلك.

تدخّل المضيف ليزيد من طمأنينته، وقد كان منشغلاً في البحث عن بيليا منذ الصباح:

- استطاع نفرٌ من الشبّان الشهام الوصولَ إلى مدخل المغارة بالقارب: لم يعد من الممكن دخولها ولا الخروج منها لأنّ البحر مرتفع، إلّا أنّهم رأوا ضوءاً في عمق المكان، دلالةً على أنّ الغجر هناك. أكثر من هذا: فإنّ النوتيّ المتفرّد بأذنٍ معتادةٍ كلَّ الأصوات، يظنّ أنّه سمع عزفَ الأكورديون.

رفعت الأمّ رأسها ثانيةً عن الوسادة عند سماع تلك الكلمات، وشعرت

أنّها تسمع العزف هي الأخرى، وأخذت تباركه.

- والآن بوسعنا أن نأكل -هتف الطبيب.

كان المضيف قد احتاط لهذا الأمر أيضاً، لكنّ زيبيديو لم يشأ الجلوس إلى المائدة. ذهب يبحث عن النوتيّ الذي وصل إلى المغارة، واسترسل في استجوابه. وفي النهاية عرض عليه تكرار الرحلة معه، لكنّ الرجل كان متعباً فرفض. فبحث زيبيديو عن صيّاد المحار، ولم يجد سوى القارب الأسود بالصليب على الحيزوم، وحيداً مثل تابوتٍ على الشاطئ الذي أنير بأضواء البيت الأبيض. تلبّدت غيومٌ كثيفة ومنخفضة في السماء تتدافعها الرياح، والبحر يفور ويدوّي على الدوام ويبدو أنّ غضبه بلا نهاية.

ظلّ زيبيديو يجيء ويغدو على امتداد الشاطئ. اقترح على نفسه المشي على اليابسة حتّى الوصول إلى رعن المغارة، ليحاول التواصل مع ابنه عبْر الصخور. ثمّ فكّر بالمشي نحو الشمال، نحو البلدة التي تقيم فيها ليا، ليجثم أمامها ويعترف بذنبه.

- طالما لم يطب خاطرها سيبقى ابني في خطر -قال بصوتٍ عالٍ- وإنّ الربَّ يحادثني بصوت البحر.

ثمّ عاد إلى المنزل. زوجته لا تزال على السرير لكنّها أغمضت عينيها وانتظرت بهدوء. سمع صوت الطبيب والمضيف في الغرفة المجاورة يتناقشان وسط طقطقةٍ مبهجةٍ للكؤوس وعدّة الطعام، الأمر الذي أغضب زيبيديو ودفعه إلى كيل اللعنات لأصدقائه. كان يكره الطبيب لأنّه يراه السبب غير المباشر لمصيبته، وقد ندم أشدّ الندم لاعترافه بخطيئته في حضوره. فسخريته بعد الاعتراف، ولامبالاته آنذاك واستمتاعه بالعشاء استخفافاً بالألم في الغرفة المجاورة، كلُّ ذلك أضفى عليه سماتٍ شيطانيّة. لكنّ زيبيديو شعر في قرارة نفسه أنّ هذا هو واقع الحياة.

- تصوَّرْ أنّه سيتقاضى أجراً على ذلك أيضاً. ولكنْ، أُقسِم أنّني سأقتله، في حال لم يعد بيليا.

*

وحدث أمرٌ عجيب على حين غرّة: كما لو أنّ البحر انصاع لأوامر إلهيّة فهدأت أمواجه وبات يبتسم فرحاً وسلاماً، وتشكَّل قوس القزح في السماء ليرسم مدخلاً إلى عالم جديد يغيب عنه الآلام والندم والقلق العابث. تقدّمت الأمّ أوّلاً ثم الأب ليشاهدا ويستمعا، وكانت أنفاسهما هي أنفاس الأمل ذاته.

سكتت الأصوات في الغرف المجاورة، وانفتحت النوافذ على مصراعيها. حتّى روزا الجالسة القرفصاء عند أرجل سرير سيّدتها هبَّت لتفتح النوافذ الزجاجيّة: كلّا، ليس هذا وهم الأمّ في هذيانها: الريح تحمل عزف الأكورديون. وعاد بيليا بعد قليل.

*

حين رأى بيليا أباه ينظر إليه عابساً بجانب سرير الأمّ، جحظت عيناه من هول المفاجأة، ثمّ تشجّعَ وتقدّمَ بغير اكتراث، كما لو أنّه عائدٌ من نزهة بسيطة. لم يبدُ قلقاً على وضع أمّه كذلك، فلقد استعادت حيويّتها كلّيّاً، مع أنّها ظلّت طريحة الفراش، تبتسم إليه خلسةً.

انفتحت كلّ الأبواب، وتراكض سكّان المنزل لرؤية العائد، وتواثب الأولاد عليه كأنّهم يتأكّدون أنّه بيليا حقّاً. فانتابه بعض الذهول. لمَ كلُّ هذا الاهتمام وهذا العجب؟ أجل، إنّه هو، فقَدَ بعض الوزن، وكانت ثيابه مهترئة وشعره مليئاً بالرمل، لكنّه مطمئنٌّ كسمكة في الماء.

- كيف استطعتَ الخروج من المغارة؟ -صاحت روزا بصوتٍ أرادت له أن يتّسم بالذعر، فضحك.

- ومَن دخل إلى المغارة أساساً؟ ربّما دخلتِها أنتِ، في منامكِ.

- كنتُ أعلم أنّه لم يدخلها -غمغمت والدته- سواء أكان حلماً أم حقيقة، لم أجده فيها.

وبينما كانت تلفظ تلك الكلمات برقّة، نهض زيبيديو ببطء وبهدوءٍ شرسٍ يذكّر بالأبطال المنتقمين في مسرح العرائس. تقدّمَ بخطواتٍ محسوبةٍ إلى الجمع الذي كان بيليا مركزه، نحّى الأولادَ بيده، وبالأخرى صفع ابنَه مرّتين، صفعتين شديدتين انحنى على إثرها وكاد يسقط أرضاً.

- هذا لكي تتعلَّم ألّا تردَّ بلهجةٍ متعجرفة على أحد.

وبينما كان الأولاد يتراجعون فزعين، وبيليا مطأطئ الرأس التي تهالكت بصفعات اليد الأبويّة، صفَّقَ أحدهم.

الطبيب.

- فليكن مفهوماً -قال وهو متّجهٌ نحو بيليا- هذا التصفيق لك، لا لأبيك. لو تلقّى الصفعةَ واحدٌ غيرك لسقط على الأرض تحت تلك الحربة، أمّا أنت فما زلتَ منتصب القامة كالسارية. أرني يدك، هكذا، شاطر. لقد تعافت! ولعلّ أباك وأمّك أرسلاني ألف مرة إلى الجحيم في سرِّهما، لأنّي أوصيتُ بهذا العلاج. والآن قل لي أين كنتَ مختفياً هذين اليومين.

تركه بيليا يتفحّص يده، لكنّه لم يكن ينظر في وجه الطبيب، ولم يردّ، وظلَّ رابط الجأش يكتم رعشةَ مهانةٍ وذعر.

- أين كنت؟ -صاح أبوه- أَجب فوراً.

- انطلقنا بنيّة الذهاب إلى المغارة -أجاب همساً كالمتّهم المُجبَر على

التحدّث رغماً عنه- لكنّ الطقس كان رائعاً، فاقترح أحدهم المضيّ إلى ما بعد المغارة لاصطياد جراد البحر. فذهبنا حتّى صخرة سانت إيليا. ومرّ الوقت، إلى أن هبّت العاصفة بغتةً. فرسونا ريثما يتحسّن الطقس. لكنّ الطقس لم يشأ أن يتحسّن، فعدنا عن طريق البرّ.

كان يطمئنُّ كلّما استغرق في الكلام، وقد نطق الكلمات الأخيرة ببعض السخرية، من أولئك الذين يصغون إليه. وكان والده يشعر بتلك السخرية ويزداد عبوساً، إلّا أنّ أشدّ ما أثار ألمه هو عدم استطاعته معانقة ابنه وطلب السماح منه.

المؤلّفة

غراتسيا ديليدّا (1871-1936) وُلدت في جزيرة سردينيا (إيطاليا) التي كرّست مسيرتها الأدبية كلَّها من أجل الكتابة عنها، وباتت تُعرَف بناقلة العالم السرديني إلى دنيا الأدب. وانصبّ اهتمامها الأدبيّ على أخلاق المجتمع الأبويّ في جزيرة سردينيا، وتطرّقت إلى مواضيع وجودية مثل القدر، والخطيئة والذنب، والخير والشرّ. برز إحساسها الدينيّ جليّاً في رسم مسارات بعضٍ من شخصيّاتها التي تجازف بخيار الإيمان وولوج اللغز الإلهيّ على أن تظلّ مثقلةً بالحسرة والندم ممّا ارتكبته من آثام. حصدت جائزة نوبل للآداب عام 1926 «بفضل مقدرتها على الكتابة، واستنادها إلى مثاليّاتٍ سامية، والتقاط أشكالٍ فنيّةٍ للحياة في الجزيرة المعزولة مسقط رأسها، ومعالجتها العميقة والدافئة لإشكاليّاتٍ تهمّ البشريّة عامّةً».

المترجم

معاوية عبد المجيد، مترجم سوريّ درَسَ الأدبَ الإيطاليّ في جامعة سِيينا للأجانب، وحاز درجة الماجستير في الترجمة الأدبيّة من جامعة بولونيا في إيطاليا وجامعة الألزاس العليا في فرنسا. صدرت له عدّة ترجمات في العالم العربيّ، أبرزها «ضمير السيّد زينو» لإيتالو سفيفو، «الرسائل الأخيرة لياكوبو أورتس» لأوغو فوسكولو، «الشعلة الخفيّة للملكة لوانا» لأمبرتو إيكو، «تريستانو يحتضر» لأنطونيو تابوكّي، ورباعيّة نابولي لإيلينا فيرّانتي. حصد عدّة جوائز عالميّة في مجال الترجمة الأدبيّة.

إلهُ الأحياء

روايـة

تخلّى زيبيديو عن الطريق الرئيسة ليكسب الوقت واتّخذ درباً فرعياً بين سورين بائدين يهيمن عليهما العوسج. الدرب خطيرٌ إذ اعتاد المنحرفون الاعتداء على عابريه ونهبهم. وعلى الرغم من أنّه لم يحفل يوماً لخطورته، فقد اعتراه شـعورٌ بالكآبة حينذاك لم يجرّب مثله من قبل، شعورٌ لا ينجلي إنّما يزيد خناقه ضيقاً على قلبه. خُيِّل إليه أنّ لديه أعداء، يتربّصون به في كمينٍ خلْفَ السورين، وهو الذي ما كان لديه أعداء على الإطلاق. هناك عينان تومضان من خلال السياج فعلاً، وهذا لمعان نصل خنجرٍ هنا، وتلك فوّهة بندقيّـةٍ هناك. يا لك من أحمق يا زيبيديو، إنّ شـمس المغيب هـي التي تمازحك بهذا الشكل.

وبدا أنّ هديل الحمام، وتغريد الشـحرور، وصرصرة الجنادب في مطالعها، تسخر منه بترنيمهـا اللامبالي. الطبيعة كلُّها تضحك، وحتّى أرهف عروق النبات والأعشـاب السامّة تراقص نسائم المغيب: كلُّ شيء يتنعّم بفرحه، حتّى الظلال تنبسط نحو القمم لكي تختفيَ بعد أطول فترة ممكنة؛ أمّا أنت، أيّها الإنسان، وحدَك تنهش قلبَك بأسنانك نفسـها. العدوُّ في باطنك بينما تظنّ واهماً أنّه خلْفَ السياج، وهذا كلّه لأنّك نسيتَ أنّ الله يريد لك أن تعيش يوماً بيوم مثل طير السماء ونبات الحقل.







السعر 45 درهماً

